أبو القاسم الزهراوي

الطبعة الأولي - دار الأنصار بالقاهرة 1979م.
طبعة ثانية - دار القلم بالكويت 1984م.
طبعة ثالثة - دار دوّن - القاهرة - 2012م.
رقم الإيداع: 14566 / 2012
I.S.P.N: **978-977- 6337- 91- 6**
الغلاف: عبد الرحمن الصواف
تصحيح لغوي: محمد الغنام

جَميـعْ حُـقـوقْ الطَبْـعْ والنَّشرْ محْـفُوظة
© **دار دَوِّنْ**

1 شارع السعادة - نصوح - الزيتون - القاهرة
تليفون: **01020220053**
www.facebook.com/DarDawen
E-mail:Info@dardawen.com

من تاريخ العلوم عند المسلمين

أبو القاسم الزهراوي

تأليف

أ . د / عبد العظيم الديب

استاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

جامعة قطر . سابقاً

تقديم: الأستاذ الدكتور أحمد الملط

دار دَوّن للنشر والتوزيع

الإهـداء

- إلى كل أبيٍّ متطلِّع إلى بعث أمجاد أمة الإسلام.
- إلى كل حائر متردِّد، إلى كل متشكِّك متراخٍ.
- إلى الجميع أقدِّم قبسًا من نور تاريخنا الإسلامي.

أبو محمود
عبد العظيم الديب

من كان يعرف نفسه حَصفا

وطبيعة الإنسان.. قد علمـــا:

أنّ غربنا بالشرق مرتبــط

لا يمكـن التفـــــريـق بينهما

جـوتـه

شاعر ألمانيا وفيلسوفها

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

الفهرس

الإهداء ٥
المقدمـة ١٣
- الإسلام والطب ٣٥
- الإسلام في الأندلس ٤٩
- الزهــراوي ٥٢
- مولده ووفاته ٥٢
- منزلة الزهراوي ٥٦
- آثار الزهراوي ٥٧
- كتاب التصريف وأين يوجد ٥٩
- جهود الزهراوي في الطب ٦٧
- الزهراوي والجراحة ٦٩
- ما انفرد به الزهراوي من العمليات الجراحية ٧١
- الزهراوي والكي ٧٩
- الزهراوي وجراحة العظام ٨٣
- الزهراوي والآلات الطبية ٨٥
- أشكال الآلات ٨٧
- أبو القاسم والأدوية ٩٧

- تسـاؤل ١٠٤
- الزهراوي في الطب اليوم ١٠٧
- خاتمـة ونتائـج ١١١
- مصـادر البحث ١١٣

المقدمـة

بقلم

الأستاذ الدكتور أحمد محمد الملط

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.. وبعد.

فقد أعز الله الإسلام، رضيناه دينًا ونورًا وتمامًا للنعمة، وطريقًا إلى الجنة، فله الحمد إذ هدانا لهذا الدِّين، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وله سبحانه المِنَّة والفضل إذ جعلنا من أهل التوحيد، وبشرنا بالجنة ما صدقنا وعْدَنا معه.

ولقد شمل الإسلام كل أمور الدنيا والآخرة، وحوى القرآنُ الكريم حلاًّ لكل مشاكل الإنسان في كل عصر ومكان، هداه الطريقين ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠) وترك له حرية السَّير في أحدهما، وحذَّره مغبة الشر، ويسَّر له طريق الخير، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وجعل خير الناس خيرَهم للناس، وعن الرسول ﷺ: «خيركم خيركُم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

والقرآن معجزة الرسول ﷺ ما سبقه بمثلها أحد من الأنبياء قبله، نزل منجَّمًا ليتديَّن المسلمون ويعملوا بما جاء فيه، وكان الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا ما نزلت آية يحفظونها ويعملون بها، ولا ينتقلون إلى غيرها إلا بعد

تمام العمل بالسابقة.. كما نزل متحدِّيًا بلاغة العرب وقُدرتهم أن يأتوا بسورة من مثله، وما استطاعوا.

تحدَّثَ عن أنباء الأمم السابقة حديث الصدق، مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، مصدقًا بالسابقين من الرسل وما جاءوا به من رسالات.. نزل شاملاً لكل شئون الدين والدنيا، ينظِّم حياة الفرد وحياة الجماعة، بل والمجتمعات أين حلت، ومتى وجدت، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد كانت أولى آياته التي تلقّاها ﷺ من الوحي الأمين تأمر بالعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١) وتحض على المعرفة: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ٢) ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ٢)، وأين كانت الحضارة حينئذ من هذا العلق الذي قرر القرآن الكريم أنه خُلِق منه، كانت -وايم الله- لم تولد بعد، فلم يُعرف هذا العلق علميًا إلا بعد أن عُرف المجهر، ورأى الإنسان معه الكائنات الدقيقة التي لا تُرى بالعين المجردة، ولكنه العليم الخبير، علَّم الإنسان ما لم يعلم في سابق عمره، فصنع الآلة التي زادت من معرفته بعلم الله، فزاده إيمانًا بعلم الله، وقدرة الله، وخلق الله.

لقد رأى الإنسان هذا العلَق أو الحيوان المنوي -كما نسميه نحن- في القرن العشرين الذي لم ينتهِ بعد، بينما القرآن الكريم يخبرنا خبره منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان.

لقد حثَّ الله تعالى رسولَه على القراءة والتعلُّم بالقلم، والعلم قراءة وكتابة وتجربة، وكلما زاد علم الإنسان، زاد معرفة بالخالق العلي الكبير. وكلما ارتفع درجة في سُلَّم العلم علم أنه لم يعلم إلا القليل ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥) وسُلَّم العلم لا نهاية له، فحتى عصر النهضة الحديثة

كان العلم التجريبي يحبو حثيثًا، ثم طفر طفرة شديدة في عصر التجربة، فبينما كنَّا في أوائل هذا القرن نعجب لرؤية السيارة والقاطرة، إذا بنا في منتصفه نرى الصاروخ عابر القارات ينتقل آلاف الأميال في غمضة العين، بل ونسمع عن سفر السابحات في الفضاء إلى المريخ، ويضع الإنسانُ قدمه على القمر، إنه العلم والتجربة، وأساسُه القلم الذي أمسك به الإنسان فتعلَّم، وزاد علمه مع التجربة.

وهذه الصفة الحديثة في العلم ما أتت من فراغ، ولكن لها جذورًا في أعماق التاريخ تنبئنا عنه أخبار السابقين، وما وصلوا إليه على سلَّم الحضارة، بل إننا لنسمع عن حضارات اندثرت بعد ازدهار وزالت آثارها، وأقرب مثل لذلك تلك القارات القابعة في الأطلنطي وما يقال عن حضاراتها كثير.

والعلم إن لم تصحبه روح نقية وضمير يعرف الخالق حقَّ معرفته، وعاطفة تنزِّهه عن الشطط والتهور هو خطر على البشرية بأجمعها، بل إنه العلم المدمِّر.

وبالأمس القريب انشطرت الذرَّة بفضل العلم واستبشر الناس خيرًا بتلك القوة الهائلة التي تصنع المعجزات، فإذا بتلك الخطوة خطر على البشرية بأجمعها، بعد أن كانت القنبلة الذرية وأول تجربة لها في هيروشيما حيث هلك من البشر مئات الآلاف في لمحة عين، وما زال أهل اليابان يعانون منها منذ الحرب العالمية الثانية، واليوم نعلم أن المخزون من قنابل الدمار والموت الجماعي يكفي لتحطيم الكرة الأرضية ومن عليها عشرات المرات.

إنه العلم المجنون المدمِّر الذي يقضي به العالم على نفسه بنفسه، لقد اتجه العلم هنا نحو الدمار والخراب بدلاً من البناء والتعمير، ولا حدود للتفكير عند البشر، فكلما علم جديدًا حاول ما بعده، وظني أنه ساعٍ في هذا الاتجاه

إلى أن يأتي على الأخضر واليابس على هذه المعمورة من خلال تدمير شامل لا يبقي ولا يذر.

ويحضرني في هذا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَت الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤)، وما هذه النهاية المفاجئة في ظني إلا دمارًا مفاجئًا يحصد الأرض ومن عليها في لمح البصر، فما ظنك الآن بذلك المخزون من أسلحة الدمار الشامل والقنابل الهيدروجينية.

كنتُ مرة في حوار مع أستاذ للكيمياء العضوية في جامعة القاهرة وهو زميل وصديق قديم، فحضرني وأنا أتلو القرآن وسمعني أتلو ﴿وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التَّكوير: ٦) فسألني عن معنى الكلمة الأخيرة، فقلتُ له: أي اشتعلت نارًا، فصمت برهة، ثم قال: ماذا يعني اشتعال البحار وهي من الماء؟ ثم أجاب نفسه بنفسه: أليست القنبلة الذرية يدخل في صنعها الماء الثقيل وهو يستخرج من المحيطات ويحتوي «هيدروجين ٣»؟ ثم أليس تفجير تلك القنبلة الهيدروجينية يأتي من خلال تسلسل تفجر ذرات الهيدروجين الذي تحكّم فيه الإنسان فجعله ينفجر بنسبة خاصة ودرجة خاصة لا يتعداها؟ ما ظنك إن سقطت قنبلة هيدروجينية في المحيط وهو يحوي من ذرات الهيدروجين ما لا يحصى، ثم انفلت عيار تفجير الذرات فتفجرت إحداها ثم الأخرى، وهكذا، وبدأ التسلسل في مياه المحيط، ألا يعني ذلك انفجار المحيط كله في غمضة عين فيشتعل نارًا في لحظة أو لحظات؟ ألا يكون ذلك مصداقًا لتلك الآية الكريمة.. آمنت بالله.. على هذه الصورة قد تكون نهاية العالم.

وبالأمس القريب في الأربعينيات من هذا القرن شبَّ أوار الحرب العالمية الثانية، فأكلت الأخضر واليابس من أوروبا، وفقد من رجالها ستون مليونًا

من البشر كانوا وقودًا للأنانية وحب الذات والتعالي على الغير.. النازية تقول بعظمة الجنس السامي والدم الأزرق، فتحاول غزو غيرها من الأمم، ويتَّحد ضدها الإنجليز والأمريكان، بل ويتحالفون مع شيطانهم الدبِّ الروسي، كما عبَّر عن ذلك تشرشل حصان الحرب العجوز، وتدخُلُ اليابان الحرب مع الألمان في قطعة من أرض الروس، ويركب ترومان رأسه فيقذف بآخر سهم في جعبة العلم، قنبلة صغيرة على اليابان يكون حصادها مئات الألوف من القتلى والمشوَّهين، بل إن في اليابان حتى اليوم من الأحياء من لا يزالون يعانون من الأمراض الإشعاعية التي تسببت عن هذه القنبلة وانفجارها.

إنه العلم المدمِّر الذي يحصد بالآلاف ولا يبالي بالقيَم، ولكنها الغاية تبرر الوسيلة.

والعجيب أن الطيار الذي رمى بهذه القنبلة على مدينة هيروشيما ظلَّ يتعذب من وخز الضمير حتى أصابه الجنون، وأدخل إحدى المصحات العقلية، ولكنه لم يشفَ مما أصابه، وكأنه شمشون هدم المعبد على نفسه وغيره.

واليوم بعد خمسة وثلاثين عامًا من تلك الحرب الضروس، نعلم أن المخزون لدى الدول التي تملك الأسلحة الذرية، أسلحة الدمار الشامل، يكفي لتدمير الكرة الأرضية مرات عديدة، بل إننا لنقرأ في صحف اليوم (الأهرام ٢٥/ ٤/ ١٩٧٩) خبرًا له معنى خطيرا وهو أن التسرُّب الذي حصل في مفاعل ذري أمريكي قد يتسبب مثله في شقٍّ عميق داخل القشرة الأرضية قد يصل عن طريق الإشعاع تحت باطن الأرض إلى الصين.

يا له من جنون وهوَس في عقول أولئك الذين يصنعون ويخزنون تلك الأسلحة، ويهددون بها العالم بما فيه أرضهم وأنفسهم.. ليس لهذا -وايم الله- من تفسير سوى سذاجة تلك العقول على ما حدث من علم، وضلالها عن

استعمال العلم لخير البشرية، وصدق الله العظيم: ﴿كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۞ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق: ٦ - ٨).

إن أمر نهاية العالم بهذه الطريقة ليس بالمستبعَد، والعجيب أن العالَم كله في سباق نحو هذه النهاية المؤلمة، لا تردعه الأحداث، ولا يوقفه قربه من تلك النهاية السحيقة التي قد يتردَّى فيها إن ظل على غوايته متبعًا هواه غير متعِظ بما سبق من نكبات حلَّت على الأرض.

وليعذرني القارئ الكريم إن أعطيت تلك الصورة المظلمة لنهاية العالم، ولكن هناك على الجانب الآخر صور للخير كثيرة يعمل فيها الإنسان بما يأتي بالخير على البشرية كلها، وأقرب هذه الصور في نفسي ولعلي لا أكون متحيزًا هي مهنة الطب.

الطب رسالة قبل أن يكون مهنة، يتحلَّى صاحبها بالحكمة والتعقل والتدبر قبل أن يتحلَّى بعلم الطب، والطبيب يبذل من ذاته وجهده لراحة البشر وتخفيف آلامهم، والطبيب الحاذق هو مَن يعرف أقرب الطرق للوصول إلى ثقة المريض، ومن ثم علاجه من مرضه.

وأسمى درجات الجهاد بذل النفس في سبيل الخير، فما بالك بمن يبذلها وهو يعلم ضعفه أمام الخالق؟ إن الطبيب إن كان مؤمنًا هو أقرب العلماء إلى الله، لهذا يبذل راضيًا يبغي رِضى الحق تبارك وتعالى، وكثير من الأطباء كان شهيد البذل والتجربة، بل إن مكتشف مرض الدرن مات بعد أن جرَّب أثر الميكروب على نفسه، فالتهمه المرض، وهو لويس باستير، والمرض هو ألدُّ أعداء الإنسان، فهو بطبعه وغريزته كَفور بنعمة الله ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (عبس: ١٧ - ١٩) محبًا للحياة كارهًا للموت، وأمثلة العوام في ذلك كثيرة وأقربها «الله يطول عمرك..

يا طويل العمر».. فهو بغريزته مصاب بالوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت، إلا من آمن بالله وابتغى لقاءه.

ومن هنا كان حب المريض للطب والطبيب، بل وتقديسه لهذه المهنة التي يرى في شخص صاحبها المنقذ الوحيد من هذا الخطر الداهم وهو الموت.. وكلنا يعلم كبشر مقدار معاناة المريض حين يمرض، واستعجاله في طلب الطبيب، ظنًّا منه أنه ربما أطال عمره، وما للطبيب في العمر من حيلة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

والطبيب إذا عرف الله كان قريبًا من الأنبياء، فهو أقرب الناس إلى نفس المريض وأحسُّ الناس بإحساسه، بل وألمسهم لضعفه أمام المرض وحاجته لمن حوله، وأقربهم ليس أمه أو أباه، بل هو الطبيب.

ومن أمثلة العامية المعروفة: «المريض ريحته وحشة، والفقير عدو الناس من غير سبب»، ولا يخلو هذا المثل من الصدق والطرافة، فآلم الناس للمريض هم أهله، وحين يثقل المرض وتشتدُّ العلة يضيق أهل المريض بالمريض، ويأتي الوقت الذي يتمنَّون فيه موته؛ راحة له ولهم.

إني لأذكر رجلاً كان من أغنى أغنياء البلدة، يمتلك ضياعًا واسعة في الشرقية، وكان بهيميا يعيش على الغريزة، عاش بين الخيل المسومة والأنعام والحرث الكثير، ولم يسعد بزوجة تشاركه تلك السعادة، ولكن كان كالحيوان يختار من النساء ما يشاء، ثم يتركها ليختار غيرها، ثم جاءته لعنة الله في شكل شلل نصفي أسفل، فَقَدَ معه حركة الساقين والفخذين، بل وفقد القدرة على التحكم في البول والبراز، ولم يسعفه ماله ولا خيله حين اشتدت به العلة، حتى أن خدمه تركوه رغم المغريات من سوء رائحته وحاجته لمن ينظف جسده. مات هذا الرجل وحيدًا في قصره ولم يعلم أحد بموته إلا من رائحة عفن الموت

مختلطة ببقايا البول والبراز بعد أيام من موته.

لقد ظل هذا الرجل بعد موته أمثولة يتحدث بها الناس سنين طويلة لمن تجبَّر وكفر بنعمة الله، فأذلَّه الله بالمرض. ومات ولم يأخذ من ماله شيئًا، ولم يترك وريثًا، فتقاسم الناس أرضه ومتاعه بل وقصره. إنها لعبرة لمن أراد أن يعتبر بذلة المريض حين يفتقد الصحة فلا يجدها، والعون من الناس فلا يلمسه، ويظل طريد المرض والحاجة إلى أن يُشفى أو يتلقفه الموت.

وعلى الوجه الآخر من هذه المهزلة الدائمة، مهزلة المرض والموت وكلاهما مكتوب على البشر ومسجل عند رب البشر، نجد الطبيب نفسه يحس بضعفه أمام غائلة المرض، وقد يستحث علمًا لإنقاذ المريض، فيخذله العلم إذا ما حم القضاء، وربما أعطى المريض كل مقومات الحياة، ولكن هيهات إذا حانت الساعة وبلغت الحلقوم، هنا يرفع الطبيب يديه مسلِّمًا بقدرة القادر الجبار الذي ينتزع سر الحياة من بين اللحم والعظم، فإذا به في لحظة حطامًا يأكله الدود، ثم ترابًا تذروه الرياح.

لقد هزتني في هذا المعنى حادثة عاصرتها واشتركت فيها كمساعد لجراح كبير في لندن هو بروفسور (هولمز سيلور) جراح القلب المشهور. كان يجري نوعًا من الجراحة في قلب مريض وهي تغيير أحد الصمامات التالفة، وهذا النوع من العمليات يستدعي إيقاف القلب تمامًا عن النبض، ويكون المريض من الناحية التشريحية ميتًا، فلا نبض ولا تنفس، ولكنه من الناحية الفسيولوجية أي الوظيفية حي، إذ أن جسمه يغذى عن طريق رئة صناعية وجهاز قلب صناعي يضخ الدم في جسمه بعد أن ينقى من خلال جهاز الرئة الصناعية.

أوقف الجراح نبض القلب بمادة البوتاسيوم بعد أن فتح الصدر، وأصبح القلب مجرد مضغة لحمية لا حراك فيه، وبدأ بمبضعه يفتح تلك المضغة،

وغيَّر الصمام التالف، وأنهى عمله فيه، ثم جاءت اللحظة الفاصلة إعادة النبضة إلى هذا القلب الميت الحي، وهذه تتأتى بلمس القلب بتيار كهربي يوقظه فينبض، والمعروف أن اللمسات المسموح بها جراحيًا لا تزيد عن أربع أو خمس لمسات، وإن زادت احترقت عضلة القلب.

لمس الجراح القلب اللمسة الأولى فأحدث فيه صدمة كهربية نبض على أثرها نبضتين ثم سكت، لمسه الثانية فنبض نبضتين أخريين ثم سكت، لمسه الثالثة ففعل كما فعل في السابقتين وسكت أيضًا. هنا أصبحنا على حافة الهاوية كما يقولون، لم يبق أمامنا إلا لمسة واحدة نتوقع أن ينبض على أثرها هذا القلب ويستمر نبضه فتعود الحياة لهذا المريض الميت الحي، أو يسكت إلى الأبد. هنا يذكر الجراح شيئين اثنين وتتقلص الدنيا أمام عينيه فلا يرى إلا هما:

الأول: أن هذا المريض الذي دخل غرفة العمليات على قدميه قد يخرج منها على محفة جثةً هامدة إن لم يتحرك قلبُه مرة أخرى، وهنا وخز الضمير. فالجراح هو الذي أوقف القلب عمدًا حتى يستطيع إجراء الجراحة، ثم هو الآن لا يستطيع إنقاذ هذا القلب، فهو إذن قد حكم على هذا المريض بالموت، وقد أراد له الحياة.

الثاني: أن هذا الجراح مهما أُوتي من علم وتجربة فإن علمه محدود وخبرته قد لا تنفع عندما يكون الفاصل بين الموت والحياة قيد شعرة. وهنا يصحو عنده الضمير وتنكشف له رؤية الخالق الجبار واهب الحياة إن شاء أخذها متى شاء.

لقد فقَدَ أستاذُنا أعصابه عندما توقف القلب عن الاستجابة للصدمات المتتالية، وذكر تلك المعاني الأخيرة فنسي نفسه وعلمه، ونسي الغرفة المعقمة والاحتياطات المذهلة ضد التلوث التي أُجريت قبل يوم الجراحة، وذكر شيئًا

واحدًا هو (الله القادر).

رفع أستاذنا البروتستانتي يديه إلى أعلى وأمسك بشعره وصرخ بأعلى صوت (O god – Help me) (يا رب ساعدني).

ثم لمس اللمسة الأخيرة المسموحة، فإذا بالقلب يستجيب ويستمر في النبضة، والرجل أمامه مذهول يكرر كلمة (الشكر لله) ولم يبدأ في إنهاء العملية وإقفال الصدر إلا بعد ساعة من الزمن، ظل ينظر إلى هذا القلب الذي استمر نبضه منتظمًا بعد أن مدت يد الله فنبهت هذا القلب النائم.

إنها حقًّا روح الله نفخها في جسم ابن آدم، فكان إنسانًا ذا عينين ولسانًا وشفتين وعقلاً وسمعًا وبصرًا، وإن شاء أخذ منه هذا السر فأماته وأقبره.

والطبيب الحاذق حين يؤمن هو أقرب الناس لهذا المعنى وأفهمهم له حين يحس ضعفه ويلمس قدرة الله، ومن هنا كان للطب والطبيب قدرة إذا ما أعطى من ذاته وجهده لمساعدة المريض على الشفاء، وتعلم قدر طاقته حتى يعطي المريض خير ما وصل إليه علمه وتجربته، فهو بهذا خليفة الأنبياء حقًّا، وخاصة إن تخلى عن الاستغلال والفائدة، وعمل في مهنته بنية البذل والعطاء، لا بنية الفائدة والتجارة.

ولقد فاض التاريخ الطبي بكثير من عمالقة العلم ومكتشفي أنواع العلاج والأدوية والجراحات، وامتلأت المكتبة الطبية بمجلدات للمئات منهم، ولكن لم يثبت على التاريخ من هؤلاء إلا من كان علمه مقرونًا بمعرفة ذاته، وضعفه أمام قدرة الله، بل وتأكده من أن كل رسالته أن يخفف آلام الناس ويساعدهم على الشفاء والبرء من أمراضهم، ولكن ليس له في العمر حيلة، وهذا هو دور العلم البناء الذي ينفع البشرية، تمامًا كمن يصلح الأرض لتنبت نبتًا طيبًا،

أو يبني المصانع لتخرج للناس نتاج العقل البشري فيما يخدم البشر ويرفع مستواهم، محققًا هنا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣) حيث سخَّر الأرض لينعم الإنسان فيها، ويحس بنعم الله عليه إذا ما عمل واجتهد، مؤمنًا بوجود الله، وبفضل الله، وقدرة الله، ولكن كثيرًا من الناس لغافلون عن آيات الله ونعمه إلا القليل، وهؤلاء هم العلماء، والأطباء من أرفع العلماء مستوى إذا ما وصلوا هذه الدرجة من القرب إلى الله، والاعتراف بعظمته وقدرته.

ولئن درج العرب على ذكر مآثر قُدمائهم حتى لقد غُصَّت المكتبة العربية بالمجلَّدات تحكي مفاخر العرب وتقدُّمهم في كل شئون الدنيا يوم أن كانت أوروبا تغطُّ في جهالة القرون الوسطى، فلقد ظفر جرَّاحنا الكبير «أبو القاسم الزهراوي» بأقلِّ القليل من تلك المخطوطات، حتى لأني أحد الذين قرؤوا اسمه لأول مرة على صفحات كتاب «أبو القاسم الزهراوي» للأخ الدكتور عبد العظيم الديب، لقد بذَّ المسلمون غيرهم في مجال الطبِّ، بل وسبقوهم لقرون عديدة، وقرأنا الكثير عن الفارابي، وابن سينا، والرازي، وابن زهر، وابن رضوان... وغيرهم من جبابرة الطب في تلك القرون السحيقة التي كانت مدنية الغرب فيها لم تولد بعد.

لقد جاء الزهراوي في عصر الأندلس؛ حيث فتحت أوروبا أبوابها على المصاريع لحضارة الإسلام، وانتشر ذلك النور في أرجائها بفضل علماء المسلمين، وكان للزهراوي بشهادة المؤرِّخين العرب منهم والمستشرقين على السواء فضل كبير وفتح علمي.

ونظرة إلى الكتاب الذي عدد فيه المؤلف مناحي النشاط المختلفة لهذا

العالم الجليل تعطي صورة صادقة لما كان عليه عقل هذا العالم، وسعة فكره، وشموخ نظره، ويكفي أن يعلم القارئ أن مجلده الضخم (التصريف لمن عجز عن التأليف) والذي يحوي ثلاثين جزءًا لموسوعة علمية شملت مناحي كثيرة من العلوم، وليس الطبّ فحسب، وليس للجراحة فيها من نصيب، إلا جزءًا واحدًا حرص المؤلف على تعداد أنواع الجراحات فيها دون الدخول في تفاصيل أحدها، وظني أن عنده العذر، إذ لو فعل لما كفى مجلد كبير لشرحها وإعطائها حقها من التسجيل للتاريخ.

لقد أغفل كثير من علماء الشرق والغرب على السواء اسم أبي القاسم، رغم ما وصل إليه من مستوى علمي ضمَّ بين جنباته كل فروع العلوم المعروفة حينئذ، فلم يقتصر على الطب أو الجراحة فحسب، ولكنه كان أيضًا عالمًا في الكيمياء، والتعدين، والتغذية، بل والصناعة، وقمَّة النبوغ في علم الزهراوي أنه كان يعمل ما يقول عنه قبل أن يسجِّله، وهذه خصلة هي في الواقع أصل النهضة الحديثة عند الغرب، افتقدها العالم الإسلامي في عصرنا هذا، فكثرت الكتابة، وقلَّ العملُ والتجربة، فتوقَّفت عقولنا عند التسوُّل من حضارة الغرب التجريبية الحديثة، وفقدنا معها أولى مقوماتها، وهي التجربة.

ولقد كان من أسباب إهمال ذكر الزهراوي -ذلك العالم الجليل كما يقول المؤلف- أنه كان يعمل بيده، الأمر الذي عابه عليه علماء عصره؛ إذ كانوا يأنفون من إجراء الجراحة ويتركونها للحجَّامين (الحلاقين)، وقد ظلت الجراحة وقفًا على الحجَّامين إلى عهد قريب، ولكن الزهراوي كان في هذه العصور السحيقة يجري الجراحة ويضيف لها، بل ويصنع لها الآلات، الأمر الذي أصبح اليوم قمة العمل للابتكار، بل والاكتشاف، فإذا علمنا أن الصاروخ الذي يدور حول الأرض أو يذهب إلى المريخ لا يقربه إلا من يجرِّبه،

لعرفنا قيمة التجربة عند الزهراوي وعصره، وقيمتها اليوم في عصر النهضة الحديثة التي أصبح فيها للتجربة المكان الأول في طرق الابتكار.

واليوم وقد بدأ ضوء الفجر يسطع على المشرق الإسلامي من جديد، وبدت بوادر النهضة الإسلامية في كل مكان، لا يسعنا إلا أن نذكر بالفخر والاعتزاز قدماء عمالقة الطب الإسلامي في شخص الزهراوي، فما شهد به علماء الغرب من عظمة هذا الرجل، وما قاله البروفسور Treind الإنجليزي «أبو القاسم محيي الجراحة ومؤسِّسُها» لَيسير مع الحق، والصدق والفضل ما شهدت به الأعداء.

وينبغي ألا نبخس العالم المعاصر حقه، بل نقرُّ ونعتزُّ بما فيه من طفرة علمية كبيرة تقوم على التجربة والتحليل واستخلاص النتائج.

وإذ أُقدِّم لهذا الكتاب القيِّم مقدِّرًا ما قام به الأخ المؤلف من جهد في جمع تلك المعلومات، وتركيزها في صفحات معدودة، تعطي صورة صادقة عن هذا العملاق الكبير، فإني أتقدَّم له باسم الجمعية الطبية الإسلامية بالقاهرة، تلك الجمعية التي وُلدت حديثًا لتكون أثرًا من آثار نهضة الإسلام الحديثة في مجال الطب وتربية الطبيب المسلم، وتعريفه حقَّ الله عليه، وواجبه نحو المريض، مسلمًا كان أو غير مسلم، لأجد في هذا التقديم حلاوة الإيمان تنبع من بين ثنايا خُلق الإخوة الأطباء الذين اتَّخذوا الجمعية الإسلامية لهم أُمًّا، مشوا في ركابها، يرجون رِضى الله تبارك وتعالى، وينشرون على الناس هدى الإسلام، وخلق المسلم من خلال العمل الصامت، معطين من ذواتهم وجهدهم في سبيل الله، لا يبتغون حمدًا ولا شكورًا، ولكن ينتظرون رضى الله والقبول في الآخرة، وخير مثل لخير الدين والدنيا نقدِّمه للمسلمين عملاً لا قولا، أخٌ كريم هو الأستاذ الدكتور «أحمد القاضي» عالم كبير، وأستاذ في جراحة

القلب والصدر في جامعة كاليفورنيا، جمع الخيرين وسار على الطريق، فهو قمَّة في الجراحة الدقيقة، وقمَّة في العمل الإسلامي، إذ يرأس الجمعية الطبية الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا، ويعمل مع إخوة له في الله في الحقل الطبي هناك عمل المسلمين.

ولقد بدأت الطلائع هنا وبزغ النور حثيثًا، فأنشئت المستوصفات في القاهرة والأقاليم، والعمل الجادُّ نحو إنشاء المستشفى الخيري إن شاء الله، وغير ذلك كثير، ومن الله التوفيق والقَبول.

وما كل ذلك إلا استمرار لثورة الزهراوي وأمثاله من عمالقة الطب في الإسلام، والخير باق ما دامت السموات والأرض.. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

رحم الله الزهراوي، وأجزل عطاءه، ونفعنا بعلمه ومعرفته.. آمين.

دكتور/ أحمد محمد الملط

الإسلام والعلم

من المعلوم المشهور أن المسلمين أسَّسوا دولة مترامية الأطراف شملت جُلَّ المعمور على وجه الأرض، في أقلَّ من مائة سنة، وأن هذه الدولة بلغت حدَّ الكمال في نُظُمها، وسلامة مجتمعها.

ومن المعلوم والمشهور أيضًا أن المسلمين برعوا في الإنتاج الأدبي شعرًا ونثرًا، وفلسفة وفقهًا، وحديثًا وتصوُّفًا، كل ذلك معلوم مشهور.

ولكن الذي يجهله الكثيرون أن إنتاج المسلمين في العلوم الطبيعية ربما فاق إنتاجهم في سائر المعارف الأخرى. فلقد وعى المسلمون جيدًا قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ - ٥). واستمعوا إلى النبي ﷺ وهو يقول: "من سلك طريقًا يطلب به علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنة"، وإلى ما أثر عنه من أنه كان يفضِّل مجلس العلم على مجلس الذِّكر.

فاندفعوا منذ فجرهم وبكل طاقاتهم يبحثون عن المعارف الإنسانية أنَّى

وجدوها، وينهلون منها ويتمثلونها، حتى استطاعوا أن يحفظوا التراث الإنساني من الضياع والهوان، وقد سارت العناية بالعلم جنبًا إلى جنب مع تأسيس الدولة وتأمين حدودها، فلم تلههم الحروب والانتصارات والفتوحات المتتالية عن إرساء قواعد النهضة العلمية ثابتةً قوية، وتمجيد العلماء ورفع منارة العلم.

فها هو الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية رضي الله عنه ينصرف عن الإمارة وجاهها إلى العلم، فيستقدم عددًا من علماء الإغريق ليترجموا له كتب الطب والحكمة والكيمياء، ويكبّ عليها دارسًا متعلمًا. واستمرت العناية بالعلم والعلماء تنمو، حتى جاء عصر المأمون الذي كان يدفع لمن يترجم الكتاب مثل وزنه ذهبًا.. (لاحظ ضخامة الكتاب وسُمك الورق في تلك الأيام).

وكان بيت الحكم وقصر الحاكم مثابة للعلماء ومأواهم ومقرهم الطبيعي، وكان بلاط الحكام أشبه بندوات علمية، ينهل منها المبتدئون، ويتبارى فيها الأساتذة.

وتقدير الحكام للعلماء وإحلالهم أرفع المنازل أمر مشهور معروف، وقصصه متداولة على كل لسان، نذكر منها ما كان من الخليفة العباسي المعتضد مع ثابت بن سنان الطبيب حين كانا يسيران معًا، وسها الخليفة ووضع يده على يد الطبيب، وسرعان ما سحبها معتذرًا وهو يقول: "ليس هكذا يكون، فإن العلماء يَعلون ولا يُعلون".

ومعرفة لشأن العلم والعلماء قال قائلهم: "إذا أراد الله بأمة خيرًا جعل العلم في ملوكها، والملك في علمائها"، وكأنما استجاب الله له، فكان كل ملوك المسلمين وحكّامهم يحبون العلم ويقدّرونه، فلا يستوزرون إلا عالمًا.

فنحن نستطيع أن نقول: إن الدولة الإسلامية كانت دولة "علمية" بمعنى أنها تعتمد على العلم، وتبني عليه أساس حضارتها ونهضتها.

ومن هنا كان هذا الاهتمام العجيب بالعلم، فلم تُعرف أمة في التاريخ عُنيت بالعلم كما عُنيت الأمة الإسلامية بالعلم في عصورها الزاهية، حتى كان العلم والحركة العلمية جزءًا من حياتها وكيانها.

وقد أصبحت اللغة العربية بفضل هذه الجهود كاللغة اللاتينية بالنسبة للأمم الغربية، بل أصبحت اللغة العلمية العالَمية أو الدولية، وكان على طلاب العلم أن يتعلَّموا اللغة العربية حتى يتمكَّنوا من مسايرة التقدُّم العلمي، وكان كل من أراد أن يكتب علمًا يقرؤه الناس لجأ إلى اللغة العربية؛ ذلك لأن اللغة العربية غدت لغة للعلم ولا لغة غيرها.

جهود المسلمين في ميدان العلم:

وما إن تمَّ للمسلمين إحياء التراث الإنساني (ما كان منه فارسيًا أو إغريقيًا أو هنديًا أو رومانيًا) حتى أخذ علماؤهم ومفكِّروهم بيد الإنسانية في طريق النور خطوات فِساحًا، فلم يكونوا مجرد نقلة لعلم الأقدمين السابقين، بل إن من المحال أن نتصوَّر أن تنقل أمة العلم من أمة أخرى دون أن تكون قادرة على هذا النقل، فاهمةً لما تنقل، أي أن تكون قد بلغت من التقدم الحضاري ما يؤهلها لاستساغة العلم الذي تنقُله.

ولا نستطيع أن نؤرِّخ لما أداه المسلمون للإنسانية في هذه الصفحات، ولكن ما سنذكره لا يعدو أن يكون مجرد ملاحظات وأمثلة سريعة.

١- المنهج العلمي:

يزهو العصر الحديث ويباهي بأنه عصر العلم، عرف أهلُه أسلوب البحث العلمي والطريقة العلمية في التفكير، وراح الغربيون يمجِّدون "فرنسيس بيكون" على أنه صاحبها ومبتكرها، مع أن مِن علماء المسلمين مَن سار عليها، وسبق "بيكون"، ومنهم مَن أدرك من عناصرها ما لم يدركه "بيكون".

وليس أدل على توافر الروح العلمية أو الذهنية العلمية من إجماعهم على تفضيل أرسطو، وما ذاك إلا لأن طريقته التجريبية لاءمت أذواقهم ونزعاتهم العلمية.

ومقدمات كتبهم زاخرة بالإرشادات والحكم والتوجيهات التي تتضمَّن منهاجهم في البحث، وطريقتهم في التفكير، ومقدّمة ابن خلدون أشهر من أن يشار إليها، ومقدّمة كتاب الحيوان للجاحظ مشهورةٌ كذلك، فهو يدعو إلى التثبُّت والإنصاف، وتجنُّب الشبهة، وإحقاق الحق.

ويروي الأصفهاني: "اجتمع متكلمان فقال أحدهما: هل لك في المناظرة؟ فقال الآخر: على شرط ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغب، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل مثلها على مذهبي، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلاً منا يبغي من مناظرته أن الحقَّ ضالَّته، والرشد غايته".

ويقول النَّظَّام: إن الشكَّ والتجربة هما الركنان الأساسيان للبحث، ويقول: الشاكُّ أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى غيره حتى يكون بينهما حال من الشك، فالشك ضروري لكل معرفة.

وعرفوا التجارب العلمية وقدَّروا أهميتها، يقول قائلهم: إن الطغرائي كان رجلاً عظيمًا على جانب كبير من الذكاء، ولكنه لم يعمل إلا قليلاً من التجارب، وهذا أمر يجعل كتابته غير دقيقة.

يقول داريز: لقد كان تفوق العرب (المسلمين) في العلوم ناشئًا عن الأسلوب الذي توخَّوه في بحوثهم، وهو الأسلوب العلمي التجريبي، واستخدامهم هذا الأسلوب هو الذي دفعهم إلى هذا الترف الباهر في الهندسة وحساب المثلثات والفلك والطب وغيرها.. ولقد حددوا أصول التجربة العلمية حين دعوا إلى تحديد الغرض من التجربة، والعمل على اتباع الوسائل الخاصة بها، والابتعاد عما هو مستحيل في نظر العقل، والعناية الدقيقة باختيار الوقت الملائم لها.. ونصَحُوا مَن يقوم بها بأن يكون صَبورًا مثابرًا صامتًا متحفظًا، ولا يغترَّ بظواهر الأشياء.

فالعلماء المسلمون هم واضعو أسس البحث العلمي بالمعنى الحديث، تميَّزوا بالملاحظة والتجربة والاختبار، ابتدعوا طرقًا، واخترعوا أجهزة وآلات لاستخراج الوزن النوعي لكثير من المعادن والسوائل، والأجسام التي تذوب في الماء، وقد ابتدع أحدهم آلة لقياس درجة حرارة السوائل، وميزانًا لوزن الأجسام في الماء والهواء.

٢- في الكيمياء:

المسلمون هم أهل هذا العلم وخالقوه على يد رائده أبو الكيمياء "جابر بن حيان"، فكان أول من جعل الكيمياء علمًا مدروسًا بعد أن كانت في نظر الناس سحرًا يُراد به تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، كتحويل الرصاص إلى فضة، والنحاس إلى ذهب. وما ابتكره المسلمون في ميدان الكيمياء أكبر من أن يحاط به في هذه العجالة، ونذكر من ذلك أن المسلمين كانوا أول من

استحضر الأحماض، وأول من استخرج ماء الذهب، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحامض، وأول من قدَّم عن الاتحاد الكيميائي نظرية علمية تفسره باتصال ذرات العناصر بعضها ببعض، ولم تُعرف هذه النظرية في شكلها العلمي إلا على يد "جون دالتون" الإنجليزي بعد "جابر" بنحو ألف سنة، كما استنبطوا طرقًا علمية لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن، وصبغ الجلود والشعر، وإلى نوع من الورق غير قابل للاحتراق.

وما زالت كثير من المركبات الكيميائية تحمل أسماءها العربية؛ دلالةً على موضع ولادتها ومكان نشأتها.. كما وضعوا عمليات التقطير والترشيح والتصعيد، والتبلور والتذويب.. وقد أشار ابن الأثير إلى أن المسلمين استعملوا مواد إذا طُلي بها الخشب منعته من الاحتراق، واستخدموها في إقامة مراكز للرماة أثناء الحرب، تحميهم من النار فيصيبون ولا يصابون.

ولنذكر بفخر أنه جاء في مقدمة أحد كتب الكيمياء المكتوبة باللاتينية ما يأتي:

"إنكم معشر اللاتينيين لا تعرفون ما هي الكيمياء، ولا ما تراكيبها وأصولها، وسترون ذلك مشروحًا في هذا الكتاب الذي ننقله عن العربية".

٣- في الرياضيات والفَلَك:

بحوث المسلمين في هذا الميدان وكشوفهم ليست أقلَّ من الميادين الأخرى إن لم تفُقها، فمن ذلك أن المسلمين كانوا أول من أوضحوا أسس علم الجبر ومعالمه، وأضافوا إليه ما جعله علمًا مستقلاً، وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة.

والمسلمون هم أول من حلُّوا المعادلات المكعبة، وتعمَّقوا في مباحث المخروطات،

وأحدثوا ثورة في حساب المثلثات لم يقدِّرها حق قدرها إلا مَن جاء بعدهم بنحو خمسة قرون، على حد تعبير "مسيو شال" في كتابه (تاريخ أصول الهندسة).

وقد أقاموا المراصد الفلكية في أنحاء البلاد الممتدَّة من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلنطي، وطهَّروا هذا العلم من خرافات التنجيم، ووضعوا جداول تحرُّكات النجوم، وهم أوَّل من عرف الأصول التي تُفضي إلى الرسم على سطح الكرة، وأول من أوجد علميًا طول الدرجة من خط نصف النهار، وقالوا باستدارة الأرض، ودورانها حول محورها، وسبقوا الغرب إلى اختراع آلة (الأسطرلاب) الدقيقة لقياس مواقع الكواكب وساعات الليل والنهار، كما حسبوا طول السنة الشمسية، وبحثوا كسوف الشمس قبل الأوروبيين، ووضعوا جداول دقيقة في النجوم الثوابت، وصوَّروها في مصوَّرات، وما زالت الأسماء العربية التي أطلقت على كثير من النجوم تتردَّد في قاعات البحث ومراصده حتى الآن.

ولا تعجب حين تعلم أن الكتب التي أُلِّفت في زمن الرشيد حَوَت من المعلومات الدقيقة ما لم تخرج عنه الحقائق الحاضرة، فقد عيَّنوا مثلاً: انحراف سمت الشمس في ذلك الزمن، وكان رقم الانحراف ٢٣ درجة، و٣٣ دقيقة، و٥٢ ثانية، وهو ما يساوي الرقم الحاضر، كما نشأ عن رصد المسلمين للاعتدال الشمسي تعيينهم مدة السنة بالضبط.

ويكفي دلالة على جهود المسلمين في الرياضيات والفلك ما رواه أحد الذين عاشوا في القاهرة في القرن العاشر الميلادي من أن مكتبتها تشتمل على كُرَتين فلكيَّتين، وستَّة آلاف كتاب في الرياضيات وعلم الفلك.

الإسلام والطب

ولقد كانت نهضة المسلمين إنسانية في طابعها وأهدافها، ولذا سرعان ما سخَّروا معارفهم وعلومهم في خدمة الإنسانية، وتجلَّى ذلك في نهضتهم الطبية، وتقدُّمهم الرائع في هذا الميدان، ثم وضعهم هذه المعارف موضع التنفيذ والتطبيق في سبيل تخفيف آلام البشر، ويكفي أن نستعرض هذه النواحي السريعة للدلالة على ذلك:

١ - ابتكاراتهم واكتشافاتهم الطبية:

وذكر من ذلك أنهم أوَّل مَن اكتشف الدورة الدموية، وجاء علماء الغرب فنسبوها لأنفسهم، ثم هم أوَّل مَن تكلَّم عن الحصبة والجدري، وأوَّل من فتَّت الحصى داخل المثانة، وأوَّل من سدُّوا الشرايين النازفة، وأوَّل من استعمل المخدِّر في الجراحة، كما اكتشفوا دودة الأنكلستوما، وكان اسمها عندهم: الدودة المستديرة، كما كانوا أوَّل من بحث في طبِّ الأطفال على أنه علم قائم

بذاته، كما كتبوا عن استخدام الماء البارد في الحُمَّيات المستمرَّة، وما زال الطب الحديث يأخذ بهذا للآن.

وقد خرج الأطباء المسلمون على طب الإغريق كثيرًا، فلم يأخذوا به دائمًا، بل أثبتوا خطأه في أحيان كثيرة مع أنه كان له منزلة التقديس، وقد زعم الطب الحديث أن أول من عالج بالتخييل هو الطبيب الفرنسي الشهير (شاركو) في القرن التاسع عشر، فقد عالج فتاة فقدت النطق، وعرف من شأنها أنها شديدة الاعتزاز بشَعرها، فأوهمها الطبيب أن مساعده حرق شعرها، فصاحت فجأة «شعري.. شعري»، وعاد إليها النطق، مع أن المسلمين سبقوا إلى هذه الطريقة، واستخدمها الرازي في علاج أمير أصيب بالعجز عن القيام، واستخدمها كثير من الأطباء المسلمين وبرعوا فيها أيما براعة.

من ذلك ما رُوي أن أحد المرضى أصابته حالة توهَّمَ معها أنه يحمل على رأسه جرَّة ويسير بها، وكان كلما رأى شيئًا يعترض طريقه طأطأ رأسه خائفًا من أن تنكسر الجرَّة، وما زال أهله يبحثون له عن العلاج في كل مكان دون جدوى، حتى جاء طبيب حاذق وأمر مساعدَه أن يحمل جرَّة ويسير وراء المريض من غير أن يشعر، ثم يعترض الطبيب طريقه ويطوح فوق رأسه بعصًا فيسقط المُساعد الجرَّة على الأرض فتنكسر، ويصيح المريض "كُسِرَت جرَّتي"، ويزول بعد هذا ما كان يعانيه من المانخوليا.

وتمتلئ كتب الطب عند المسلمين وتاريخه بأمثال هذه الحالات الطريفة.

٢ - المستشفيات:

عرف المسلمون المستشفيات العامة، وكانت أول مستشفيات بالمعنى الكامل،

عُرِفت على وجه الأرض، بل إن (جوستاف لوبون) يقول: "إنها كانت أفضل صحيًا من مشافي أوروبا الحديثة، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير".

ولما عُهِد إلى الرازي في اختيار أفضل مكان في بغداد لإقامة مستشفى عليه، التجأ إلى طريقة لا ينكرها عليه أصحاب نظرية الميكروب الحديثة، وذلك أنه علَّق قطعة لحم في كل حي من أحياء العاصمة، وأعلن أن أصلح حيٍّ يقام عليه المستشفى هو الحي الذي يتأخَّر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة عن الأحياء الأخرى.

وكانت المستشفيات ملاجئ للمرضى وأماكن للدراسة، وكانت الدروس تُلقى حول أسرَّة المرضى أكثر مما تُلقى في قاعات المحاضرات، وكان المسلمون أول من اتَّبع ذلك التقليد.

وقد انتشرت المستشفيات وعمَّت أنحاء الدولة الإسلامية، فكان في كل مدينة مستشفى عام على الأقل، وهو مؤسسة حكومية يُشيِّدها ويقوم بنفقاتها أحد الخلفاء، أو أحد كبار الأمراء، وكان التشابه عظيمًا بين هذه المستشفيات في كل شيء: البناء، والإدارة، والأقسام، ويصحُّ في أكثرها وصف عام واحد.. وكان كل مستشفى من هذه المستشفيات يقسَّم إلى أجنحة للرجال والنساء، ثم إلى أجنحة تبعًا لنوع المرض، فهذا للحُمِّيات، وهذا للجراحة والتجهيز، وهذا للحوادث العارضة، وللاستقبال، وهكذا.

ومن أقسام المستشفى صيدلية يُشرِف عليها صيدلي قانوني، وبها الأدوية والعقاقير والقوارير، وتزيَّن بالتحف -كما نرى في صدر صيدلياتنا الحديثة- ويجهَّز كل مستشفى بمكتبة تضم المفيد من مخطوطات كبار الأطباء.

وتنوَّعت المستشفيات وتعدَّدت أغراضها، فكان منها مستشفيات خاصة بالمجذومين، كانوا يسمونها "المجاذم"، وهذه أول دور عولج فيها المجذومون علاجًا فنيًا.

ومنها المارستانات، وهي ملاجئ للمعتوهين ومرضى العقول، أنشئت أول أمرها في العهد الأموي، واستمرَّت العناية بها تزداد، ويوقف المحسِنون عليها الأموال والعقارات، ومما يشهد بما كان في هذه المارستانات من رعاية لتلك الطائفة ما جاء بصكِّ الأوقاف على المارستان العتيق بحلب: "إن كل مجنون يُخَصُّ بخادمَين، فينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحمِّمانه بالماء البارد، ثم يُلبسانه ثيابًا نظيفة، ويُفسِّحانه في الهواء الطلْق، ويُسمعانه الموسيقى والأصوات الجميلة".

في هذا الوقت كان المجانين في أوروبا يُحرمون من دخول المستشفيات، وكانوا يقيَّدون بالسلاسل في البيوت الخاصة بهم، وكانوا يموتون من الإهمال والجوع والعُري، وكان علاجهم الوحيد الضرب.

ومن أنواع المستشفيات التي عرفها المسلمون: المستشفيات المتنقِّلة، سواء كان منها للإسعاف أو المستشفيات الحربية.

وكانت إدارة المستشفيات لا تفرِّق بين صغير وكبير، وعظيم وحقير، ومسلم وذمِّي، بل كانوا يعالجون الجميع دون أية تفرقة، ويضعون قوائم للانتظار حين تضيق المستشفى بالمرضى، وتكون حالتهم تسمح بالانتظار.

وهذه حادثة طريفة رواها مؤلف كتاب (النجوم الزاهرة) تدلُّ على ما بلغته المستشفيات العربية من رُقيٍّ عجيب، وذلك أن أحد الأجانب زار دمشق، ولما طاف بها ورأى معالمها أعجبه مستشفاها بما فيه من نظام ورعاية وطعام ولطائف، فقصد المداعبة وادَّعى المرض ودخل المستشفى.

وأدرك رئيسُ الأطباء حاله وغرضه، فوصف له أحسن الأطعمة وألذَّها وأشهاها، وفي اليوم الثالث وقَّع على تذكرته قائلاً: "إن الضيف عندنا هنا لا يقيم أكثر من ثلاثة أيام"، فكان إعجاب الرجل الزائر بذوق الطبيب وظرفه أكثر من إعجابه ببراعته، وكان إعجابُه ببراعته أكثر من إعجابه بجمال المستشفى وروعته.

ولم تقتصر الرعاية على الفترة التي يقضيها المريض في المستشفى، بل كان عند خروجه يُعطَى ثوبًا ونقودًا، وترتَّب له الأغذية في منزله -إذا كان محتاجًا- حتى يعود إلى سابق حاله قبل المرض.

ومن الممكن أن ندرك أي عظمة وأي تقدُّم كان عليه المسلمون إذا قرأنا وصف (ماكس نورد) لأحد مستشفيات باريس في تلك الفترة، حيث يقول: "يُستبقى في فراش واحد أربعة مرضى أو خمسة أو ستة، فترى قدمَي الواحد في جانب رأس الآخر، والأطفال الصغار إلى جانب الشيوخ الشيب.. حقًّا إن هذا لا يُصدَّق، ولكنه الحقيقة الواقعة.. وهنا امرأة تئنُّ بين مخالب المخاض، إلى جانب رضيع يتلوَّى من التشنجات، ورجل يحترق في هذيان الحمَّى، إلى جانب مسلول يسعل سعلته الجارحة.. وتتراكم الحشرات في الدار كلِّها، وتفسد رائحة الهواء في قاعات المرضى، حتى لا يجرؤ المرء على دخولها إلا بعد أن يضع على وجهه إسفنجة مبللة خلاً، وكانت الجثث تبقى أيامًا يقاسمها المرضى الفراش».

ويستمر في وصفه وصفًا تقشعرُّ منه الأبدان، فلا داعي لإيراده كله.

وكان هذا في باريس، فلنسمع وصف أحد الرحالة لمستشفى من مستشفيات القاهرة، وهو المستشفى المنصوري؛ قال الرحالة: "في هذا المستشفى يبلغ عدد المرضى المقبولين والناقهين المصروفين أربعة آلاف يوميًا.

وعندما يداوَى المريض ويخرج، يتناول صدقة المستشفى، وهي ثوب وكمية من الدراهم تقوم بحاجته الضرورية.. وأما غذاء المرضى فهو لحم دجاج وضأن، والأثاث والفراش والثياب تنافس بترفها ما يُزيِّن قصور الخلفاء والأمراء.. ويقوم بالأعمال أطباء مهرة، ومفتِّشون قادرون، ومديرون مهذَّبون، وخَدَمٌ عاملون يتصرَّفون للقيام بكل حاجات المرضى، وبكلمة واحدة: كل شخص عرف ما عليه من الواجبات فيقوم بها دون إهمال.

كما كانت الفرق الموسيقية تصدح في أوقات معينة في ردهات المستشفى ترويحًا عن المرضى، وتسليةً لآلامهم".

ومما يُذكر أن عادة إنشاء الأناشيد الدينية وترتيلها على المآذن قبل الفجر، ترجع أصلاً إلى ناحية طبية، فقد كان الغرض منها أول الأمر تسلية المرضى المؤرَّقين، وتخفيف عناء السهر عنهم.

وذلك أنهم أدركوا عِظَم الفائدة من تسخير قوى النفس في علاج أمراض البدن، واشتهر بذلك منهم كثيرون، وكان مصدر مدح وتقدير لهم.. قال الشاعر في مدح ميمون بن موسى طبيب صلاح الدين الأيوبي:

أرى طبَّ جالينوسَ للجسم وحده

وطبُّ أبي عمرانَ للعقلِ والجسمِ

بل إن أطباء المسلمين عرفوا السبيل إلى العلاج بالتحليل النفسي، هذا بينما كان (فرنسيسكوس ولاهاي) طبيب فرنسا الأشهر في سنة ١٦٩٤م يوصي في علاج الأسنان بحمل سنٍّ من شخص ميت، والمضمضة بالبول، ومسِّ اللثة بزيت معجون فيه عَظْم الكلاب المسحوق، وأكل معقود العناكب!

وقد حدث أيضًا أن صلاح الدين عَلِمَ بأن في قلعة أعدائه مريضًا ومريضةً

استعصى علاجهما، فأرسل أحد أطباء جيشه لإنقاذهما، ولكنه لم يُقم طويلاً، وعاد بعد أيام ليحكي القصة الآتية:

وجدت رجلاً أصابه الخُرَّاج في قدمه، وامرأة مصابة بداء السلِّ، فعكفت على علاج الخرَّاج "باللبخ"، وأما المرأة فدبَّرت لها غذاء، ومكَّنتها من الدواء الصالح لها، ولم ينقضِ على ذلك إلا أمد قصير، حتى قدم أحد أطباء الفرنجة، فبادر إلى الرجل فخيره بين بتر الرِّجْل وبين بقائها الذي ربما أدَّى إلى موته، فاختار الرجل البتر، فأمر الطبيب ببترها وأخطأت الفأس الضربة الأولى فعاودها بضربة ثانية، مات الرجل على إثرها، أما المرأة فبعد أن فحصها الفرنجي ادَّعى أنها مُصابة بشيطان في رأسها، فأمر بحلق شعرها وقصر غذائها على الزيت والثوم، ولما زادت سوءًا أخذ موسى حادة وقطع بها رأسها، قِطْعتين شبه الصليب، ثم أمر بالملح فنُثِر على الجرح "وحكَّ به" فتُوُفِّيَت المرأة على الأثر.

ثم ختم كلامه قائلاً: "فسألتهم: هل بقيت لكم حاجة؟ قالوا: لا.. فجئت وقد تعلَّمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!".

٣- تعليم الطب:

عرف المسلمون القدرات الخاصَّة اللازمة لتعلُّم الطبِّ، وأدركوا أنه ليس كل إنسان بقادر على تعلم ذلك الفن، ومن أجل هذا عقدوا اختبارات للقبول في مدارس الطب -كما ترى الآن في أحداث الجامعات- وقد حدَّدوا الصفات التي تؤهِّل صاحبها لتعلُّم الطب بأنه: ذو طبع خير ونفس زكية، وأن يكون حريصًا على طلب العلوم، ذكيًا ذَكورًا لما قد تعلَّمه، شجاعًا، مالكًا لنفسه عند الغضب، شَفوقًا على العليل.

وقد ذكرنا أنهم كانوا يتَّخذون من المستشفيات أماكن للدراسة، وكانوا يعتمدون في دراسة الطب على النواحي العملية، واستخدموا الحيوانات في التجارب الطبية، بل إن منهم من لجأ إلى تشريح الجثث، واعتمد عليه في دراساته.

وقد انتشرت مدارس الطب في أنحاء الدولة الإسلامية، واشتهر منها مدارس بغداد، ودمشق، وقرطبة، وأشبيلية، وقد بلغ من عظمة هذه المدارس وضخامتها أن عدد دارسي الطب وطلبته في بعضها كان يزيد على ستة آلاف.

٤- تقاليد المهنة:

إن من يطَّلع على نظام ممارسة مهنة الطب يعجب أشدَّ العجب لتلك التقاليد التي وضعها المسلمون؛ حين يرى أن ما وصلت إليه الآن وزارات الصحة ونقابات الأطباء لم يخرج عما وضعه المسلمون.

فقد كان على "المحتسب"[١] «أن يأخذ على الطبيب عهد أبقراط قبل مزاولته المهنة»، وكان يُحلِّفهم ألا يعطوا أحدًا دواءً مُضِرًّا، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يُسقِط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، ويغُضُّوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يُفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار...

وكان أستاذ الطب يستحلف تلميذه الطبيب المبتدئ مخاطبًا إياه بهذا القسم:

"برئت من قابض أنفس الحكماء، وفيَّاض عقول العقلاء، ورافع أوج

(١) يشبه سلطة النيابة العمومية في العصر الحاضر.

السماء، مزكي النفوس الكلية، وفاطر الحركات العلوية، إن خبأت نصحًا، أو بذلت ضرًّا، أو تلبَّست بما يغمُّ النفوس وَقعُه، أو قدمت ما يقلُّ عمله إذا عرفت ما يعظم نفعه.. وعليك بحسن الخلق بحيث تَسَع الناس، واستفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما في وسعك، فإن ضيَّعته فأنت ضائع، وكل منكما مشترٍ وبائع، والله الشاهد عليَّ وعليك في المحسوس والمعقول، والناظر إليك والسامع لما نقول، فمن نكث عهده فقد استهدف لقضائه سبحانه، إلا أن يخرج من أرضه وسمائه".

كما ذكروا أن على الطبيب أن يجتهد غايته في معرفة المرض، ويسأل عن كل ما هو من شأنه أن يدلَّه على الصواب، ثم يكتب الدواء ونظام الطعام، وكل ما يراه من إرشادات، ويسلِّم نسخة للمريض وأخرى لذويه، فإن شُفي فللطبيب أجرته وكرامته، وإن مات قدَّموا النسخة التي معهم من تشخيصه لكبير الأطباء، فإن رأى تقصيرًا أو تهاونًا من الطبيب المعالج حكم عليه بالدية.

كما كان هناك مفتِّشون للتأكد من أن الطبيب عنده جميع آلات الطب كاملة مما يحتاج إليه في تخصصه.

كما كانت هناك اختبارات يُجريها هؤلاء المفتِّشون من آن لآخر للأطباء المزاولين للمهنة وللصيادلة، وكان كل منهم يُمتحن حسب تخصصه والفرع الذي يزاوله.

وكثيرًا ما كانت تُجرى تلك الاختبارات بصفة مفاجئة، فقد شاع مرة أن الصيادلة يتهاونون في تحضير الأدوية ويغشُّونها، فحدثت عملية تفتيش عامة وسريعة نُفي على أثرها كل من ثبُت عليه غِشٌّ أو تلاعُب، وثبت الباقون، وأعلن ذلك على الناس ليكون درسًا لكل خائن.

وقد حدَّد (علي بن رضوان) -أحد كبار الأطباء- الصفات التي يجب أن تتوافر في الطبيب بما يلي:

١- أن يكون تامَّ الخَلق صحيحَ الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرواية، عاقلاً ذَكورًا، خيِّر الطبع.

٢- أن يكون حسن الملبس، طيِّب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

٣- أن يكون كتومًا لأسرار المرضى لا يبوح بشيء عن أمراضهم.

٤- أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمَّسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

٥- أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل المرضى، فضلاً عن أن يتعرَّض لشيء منها.

٦- أن يكون مأمونًا ثقة على الأرواح، لا يصفُ دواءً قتَّالاً، ولا يعلمه، ولا دواء يُسقط الجنين، يعالج عدوَّه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

كما كان من أخلاق الأطباء المسلمين السعي إلى العلم دائمًا، وعدم الانقطاع عن الدرس مهما بلغت منزلتهم. روي عن ابن المطران أنه كان يغلب عليه الزهو بنفسه والتكبُّر حتى على الملوك، إلا إذا حضر مجلس العلم، فكان إذا اقترب نزل عن جواده، ونحَّى عنه تابعه وخادمه، وتقدَّم يحمل كتابه وقلمه في خضوع، ولا يُرى عليه ذلك إلا في هذا الوقت.

٥- منزلة الأطباء:

لقد حَظِيَ الأطباء بالمنزلة العظمى في قصور الخلفاء والحكماء من غير

نظر إلى جنس أو دين، فقد كانوا يُجلُّون الرجل لعلمه وفضله، ويعرفون له قدره ومنزلته، ولا يغضُّ من ذلك كونه يهوديًا أو مجوسيًا، فارسيًا أو يونانيًا.

ويكفي أن تعلم أن (آل بختيشوع السريانيين النساطرة) ظفروا بمنزلة في بلاط الخلفاء العباسيين، جعلت الرشيد وهو في الموقف بمكة يدعو ويطيل في الدعاء لـ(جبريل بن بختيشوع) مما جعل بعض مرافقيه يعجب من دعائه لغير المسلم، ولكن الرشيد يجيبهم بما يؤكد منزلة هذا الطبيب العالِم.

بل كان الرشيد يقول: كل من كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل؛ لأني أفعل كل ما سألني فيه ويطلبه مني، فكان القُوّاد والكبراء يقصدونه في كل أمورهم.

وأبلغ في الدلالة على علو تلك المنزلة أن (ابن القفطي) المؤرِّخ، أحصى المرتَّبات والهدايا والمنح التي قُدِّمت لأحد الأطباء في مُدَّة خدمته، التي بلغت ثلاثة وعشرين عامًا، فوجدها "ثمانية وثمانين مليونًا من الدراهم"، وهو ما يوازي بالاسترليني "مليونين ونصف من الجنيهات"!

٦- أثر الطب الإسلامي في الغرب:

رغم المحاولات الدائمة من مؤرِّخي الغرب وأساتذته لإنكار فضل الإسلام على الحضارة العالمية، ورغم مؤامرات المستشرقين لتشويه دَور المسلمين الخالد نحو التراث الإنساني، ورغم تلك الخرافات التي يروِّجها الأفَّاكون باسم العلم، أعني بها خرافة العقلية الآرية (الأوروبية) وفضلها على العقلية السامية.

برغم كل ذلك، فإن الحقيقة كانت أكبر من أن تُحجَب تمامًا كما يحاول

الصبيان إخفاء نور الشمس بإثارة التراب والغبار.. ومن هنا وجدنا كثيرًا من مؤرِّخي العلم الأوروبيين يعترفون بأثر المسلمين وفضلهم، لا في الطبِّ فحسب، بل في كل نواحي المعرفة.

يقول (كلوفادير) من مؤرخي فرنسا وأدبائها: "إن هزيمة العرب في بواتيه قد أخَّرت المدنية الغربية ثمانية قرون إلى الوراء، فلو ظفر المسلمون يوم بواتيه لحملوا مدنيتهم إلى الغرب، ولما طالت أيامه في الجهل المطبق"[1].

ويقول (جوستاف لوبون): "كلما تعمَّق المرء في دراسة المدنية العربية تجلَّت له أمور جديدة، واتَّسعت الآفاق أمامه، وثبُت له أن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكُتُب العرب خاصة، وأن العرب هم الذين مدَّنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق، ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثلَ ما أنتجوا في هذه المدة القصيرة التي كُتِب لملكهم قضاؤها".

إلى أن يقول: "والعرب أول من علَّموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدِّين"[2].

هذا عن أثر المسلمين الحضاري بصفة عامة، أما في مجال الطب فقد زرع المسلمون الإيمان بالإنسان والثقة فيه، ومن ثم إعطاء الجسد حقه من العناية ليكون قويًّا سليمًا، ومن هنا بدأت المدارس الطبية الأوروبية تنهل من طبِّ المسلمين وتقدُّمهم، مثل مدرسة (سالرنو) التي هيَّأ لها قُربها من صقلية المسلمة فرصة الاستفادة من طب المسلمين وعلمهم، مما جعل المؤرخين يجمعون على أنها دعامة من دعائم النهضة العلمية في أوروبا، بل رائدة النهضة الأوروبية وركنها الأساسي.

(١) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، جـ١، ص٥٣.

(٢) جوستاف لوبون: النفسية السياسية.

كذلك جامعة (مونبيليه) بفرنسا، وجامعة (بادوا – أو بادوفا)، فكلها كانت مراكز التقاء بين طب المسلمين والطب الغربي.

ونذكر هنا شهادة أحد علماء الغرب في العصر الحديث، فقد قال مدير جامعة (فيينا) في حفل تخريج دفعة عام ١٩٦٢م، وكان الأوَّل فيها مُسلمًا من جمهورية مصر العربية:

"إننا نحتفل بمجد من أمجاد العلم الذي كان للعرب فيه الفضل الأول، إن العرب لم يحضروا إلينا ليتسوَّلوا من العلم، بل ليأخذوا قليلاً مما أعطَونا من العلوم، وخاصة في الطبِّ، إن هذا الطبيب المصري يعيد إلينا ذكريات ابن سينا"[١].

ولعل من الطريف أن أشير هنا إلى أن ما يقوله عنا الغربيون اليوم دَيْنٌ ندفعه الآن، فقد نظرنا إليهم مثل هذه النظرة من قبل، حيث كانت الجولة لنا والدنيا معنا، أعني أننا كنا نعي ما نحن عليه من تقدُّم وازدهار، وما هم عليه من تأخُّر وانحطاط.

قال القاضي (صاعد الطليطلي) يعلِّل تأخُّر الشماليين (الأوروبيين): "إن إفراط بُعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم، برَّد هؤاءهم وكثَّف جوَّهم، فصارت لذلك أمزجتُهم باردة، وأخلاطهم فجَّة، فعظمت أبدانهم، وابيضَّت ألوانهم، وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقَّة الأفهام، وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، ونشأ فيهم العيُّ والغباوة"[٢].

ولكن: ألست معي في أن نظرة قاضينا (صاعد الطليطلي) في تلك القرون الأولى أقرب إلى روح العلم من نظريتهم الآن.. حيث يعلِّل تأخُّرهم بأثر البيئة

---

(١) جريدة الأهرام، ١٢/ ٨/ ١٩٦٦م.

(٢) طبقات الأمم، ص٨، ٩. وتاريخ العرب لفيليب حتى، ص٢٨٣.

والمناخ، وقد نجد لهذا سندًا من العلم الحديث.. أما هم فيعميهم التعصُّب ولا يجدون أمامهم من تفسير إلا الدم والدِّين.

٧- أطباء العرب:

لقد تخرَّج في مدارس الطب الإسلامية أجيال، أدَّوا أعظم الخدمات وأجلَّها للإنسانية، ونستطيع أن ندرك ضخامة هذه الأعداد حين نعلم أن عدد الأطباء في مدينة واحدة من المدن الإسلامية (وهي مدينة بغداد) بلغ في القرن الثالث الهجري ٨٦٠ طبيبًا، عدا أطباء الخليفة[١].

ولمع من ذلك أسماء ما زالت تملأ سماء الطب، وتتردَّد في قاعاته أمثال ابن سينا، والرازي، والفارابي، وابن زهر، وعلي بن عيسى، وابن رضوان، ثم الزهراوي الذي سنُفرد له هذا البحث في الصفحات الآتية.

(١) ابن أبي أصيبعة، الجزء الأول، ص٢٢٢.

الإسلام في الأندلس
بيئة الزهراوي

في عام ٩٢ هجرية كان نور الإسلام قد عمَّ الشمال الإفريقي كله، وتمَّ استقراره فيه، وبدأ شعاع منه يعبر المضيق إلى أوروبا، فيضيء دنياهم ويُشرق على نفوسهم، فتهفو إليه القلوب، وترنو إليه الأبصار، وتأتي الرسل والوفود إلى حكام إفريقية يعلنون أنهم مفوضون من قومهم لدعوتهم إلى أوروبا؛ لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وكان أن عبر طارق بن زياد (مولى موسى بن نُصير) المضيق إلى أوروبا في رحلة من أطهر الرحلات التي عرفها التاريخ.. ودخلت الأندلس عهدًا جديدًا من النور تحت راية "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

ولم يُضع الأندلسيون وقتًا، فانطلقت قواهم المعطَّلة بأقصى ما تستطيع بمجرد أن فكَّها الإسلام من أغلالها. وتعاقبت الدول والحكام، وبقي طابع الأندلس كما هو، سعي في سبيل العلم والحضارة حتى أصبحت تنافس المشرق

في كل النواحي، وتبزُّه في كثير منها.

وصارت منارة من أعلى منارات العلم، بل أعلاها.. يقول صاحب (صناجة الطرب): "إن مدارس الأندلسيين كانت على غاية من الإتقان، فقصدها أهالي أوروبا في القرون الوسطى، وقرأوا العلم فيها، ثم تزوَّدوا منها إلى بلادهم، ففي سنة ٣٦٠هـ (٨٧٢م) أمر (هرتموث) رئيس دير ماري غالن جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها، وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لا مزيد عليه، وأشهر مَن تعلَّم العلم في هذه المدارس هو البابا (سلبيستروس الثاني)، طاف بقسم كبير من أوروبا طالبًا المعارف حتى دبَّت قدمه في الأندلس، فرتع في مدارس أشبيلية وقرطبة، وصرفت رغبته إلى العلوم حتى تنصَّب بابا، فشاد للعلم مدرستين في إيطاليا وريفر، وأدخل إلى أوروبا معارف المسلمين.

ومن ثم ثارت الحمية في أهل إيطاليا وفرنسا وجرمانيا وإنجلترا فطلبوا الأندلس من كل فجٍّ عميق، وتناولوا المعارف عن أهلها"[1].

وكانت قرطبة هي المركز لتلك النهضة العلمية العمرانية الرائعة، فقد كانت مدَّة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نورًا، وكانت حاضرة ملوكها وقصور خلفائها؛ لكثرة عنايتهم بالعلم والحرص على استجلاب العلماء إليها من كل فجٍّ وصوب، أشبه بمجامع علمية، وقاعات خزائن كُتُبهم كأنها دور حكمة فيها معامل كبيرة غُصَّت بالنساخين، والمجلِّدين، والمذهِّبين، والنقَّاشين.

ومن خزائن كتبهم ما كانت جرائد أسمائها تستغرق عشرات المجلدات.. وبلغ عدد الكتب في مكتبة قرطبة العامة نحو أربعمائة ألف مجلد (٤٠٠,٠٠٠).

---

(١) أصول المعارف: صناجة الطرب في أخبار العرب، ص٤٤٣.

وكانت جامعة قرطبة من أعظم جامعات الأرض، تُقرأ فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والكيمياوية[1].

وكانت الزهراء (ضاحيتها العظمى) من عجائب أبنية الدنيا، أنشأها (أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله) الملقَّب بـ"الناصر" -أحد ملوك بني أمية بالأندلس- بالقرب من قرطبة في أول سنة ٣٢٦هـ، وهي من أهول ما بناه الإنس وأجله خطرًا، وأعظمه شأنًا.

وكان الناصر يقسِّم جباية البلاد أثلاثًا: فثلثٌ للجند، وثلثٌ مُدَّخَر، وثلثٌ ينفقه على عمارة الزهراء.. وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار وزيادة.

وقد أمر بقطع شجر الجبل الأسود المحيط بها وغرسه تينا ولوزًا، ولم يكن منظر أحسن منها، ولا سيما في زمان الأزهار، وتفتُّح الأشجار، وهي بين الجبل والسهل[2].

في هذه البيئة نشأ الزهراوي: أبو القاسم خلف بن عباس.

---

(١) الإسلام والحضارة العربية، ج١، ص٢٤٥ - ٢٤٧ بتصرف.

(٢) نفح الطيب، ج٢، ص٦٥، ١٠٣ بتصرف.

الزهـــراوي

الزهراوي أحد رُوَّاد الطب والجراحة، ويُكتب اسمه في أوروبا بطرق مختلفة، وعلى هذا فهو يسمى (البلكاسس، أبو الكاسس، السروي، أكاراني، الزهراوي، زاهر فيوس، الكاراڤي)[1].

ذكرت كتب التراجم والأعلام أن اسمه (أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي)، وأضاف بعضها القرطبي[2].

مولده ووفاته

وليس غريبًا أن نضع مولده ووفاته جنبًا إلى جنب؛ لأننا إذا رُحنا نبحث التاريخ الذي وُلد فيه أبو القاسم لا نجد أحدًا عني بتسجيل مولده بالتحديد، شأنه في ذلك شأن أعلام هذه العصور الذين أهمل أمرهم في بدء حياتهم، حيث لم يكن أحد يدري ما سيكون لهم من مجد في مستقبل حياتهم، وقد يعيِّن تاريخ الوفاة بعض الشيء، على تحديد الفترة التي عاشها الزهراوي.

فنحن أمام اضطراب عجيب بلغ أقصاه في تاريخ ميلاده ووفاته، فصاحب أصول المعارف (ص٤٣٨) يذكر أنه وُلِد في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي)، ويلجأ إلى هذا التعميم البستاني[3] أيضًا فيقول: وُلِد في

(١) الدكتور صلاح العفيفي: أبو القاسم الزهراوي.

(٢) هدية العارفين، ج١، ص٣٤٨.

(٣) دائرة المعارف، ج٢، ص٣١٤.

الزهراء قُرب قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي. أما الهراوي فيحدد تحديدًا قاطعًا يقول: وُلِد في ٩٣٦هـ أو ١٠١٣م بإسبانيا، ويقول أيضًا: وكان الزهراوي هو والوزير عيسى بن إسحاق الطبيبَين النابغين في العلوم والمعارف، وكان بينهما دار ندوة، وكان كلاهما الطبيب الخاص للأمير عبد الرحمن الثالث[١].

ورحنا نبحث عن الأمير عبد الرحمن فوجدنا مدة حكمه كانت بين ٣٠٠هـ إلى ٣٥٠هـ[٢].

وفي نفح الطيب[٣] أن الأمير عبد الرحمن الناصر هو الذي أنشأ الزهراء في سنة ٣٢٥هـ.

أما الدكتور أسعد الحكيم[٤] فيشير إلى هذا الاضطراب في تاريخ مولده، فيقول: وُلد في الزهراء قُرب قرطبة، وقد اختُلِف في تاريخ ولادته، ويغلب أن تكون في أوائل القرن الحادي عشر.

وصاحب الطبِّ العربي[٥] يقول: إن الزهراوي كان طبيب الخليفة الحكم، وتوفِّي عام ١٠١٣م، وفي مجلة المجمع العلمي للدكتور أحمد عيسى[٦] أنه توفِّي سنة ٥٠٠هـ - ١١٠٦م.

والدكتور زكي علي[٧] يقول: إنه وُلِد في ٩٢٦ ميلادية. والدكتور صلاح

(١) فضل العرب على الجراحة، ص٢.

(٢) تاريخ الأندلس السياسي والعمراني، ص١٩١.

(٣) جزء ٢، ص٦٥، ١٠٠، ١٠٣ بتصرف.

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي، تاريخ الطب العربي.

(٥) أمين أسعد خير الله، ص١٧٢.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٦، ص٤٤٦.

(٧) رسالة الطب العربي، ص ٣١.

العفيفي يقول: إنه وُلِد ٩٣٦ ميلادية أيضًا[١]. ويقول إنه اشتهر سريعًا، وأصبح الطبيب الخاص لعبد الرحمن الثالث.

وفاتــه:

وتواريخ وفاته ليس أقلَّ اضطرابًا من تاريخ مولده، على غير المتوقَّع، ففي جذوة المقتبس[٢] أنه توفِّي بعد سنة ٤٠٠هـ، وفي معجم المطبوعات توفِّي سنة ٤٠٤هـ[٣]. وفي معجم المؤلفين[٤] توفِّي سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. وفي هدية العارفين توفِّي سنة ٤٢٧هـ[٥]. وفي كشف الظنون[٦] توفِّي سنة ٤٠٠هـ. وأما العفيفي فيقول: توفِّي سنة ٥٠٠هـ[٧]. وكذلك الدكتور زكي علي[٨] يقول: توفِّي سنة ٥٠٠هـ. وممن ذكره بالميلادي دائرة المعارف الإنجليزية[٩]: ١١٢٢م. والعفيفي نفس المصدر ١١٠٦م، وخير الله ١٠١٣م[١٠].

ونحن هنا أمام اختلاف بيِّن، فمنهم من يقول: توفِّي في مطلع القرن الخامس الهجري، ومنهم من يقول: توفِّي في مطلع القرن السادس ٥٠٠هـ، ومنهم من يقول: ١١٢٢م، ١١٠٦م، ١١١٣م.

---

(١) أبو القاسم الزهراوي، ص٢.
(٢) ص١٩٥.
(٣) ص٨٣٣.
(٤) ج٤، ص١٠٥.
(٥) ج١، ص٣٤١.
(٦) ج١، ص٣٤٨.
(٧) أبو القاسم الزهراوي، ص٢.
(٨) رسالة الطب العربي، ص٣٢.
(٩) عن الزهراوي: فضل العرب على الجراحة، ص٢.
(١٠) الطب العربي، ص١٧٢.

وإذا أردنا أن نحقِّق هذا الاختلاف نضع أمام أنظارنا الملاحظات الآتية:

١- إن الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) تولَّى الحكم في الفترة ما بين ٣٠٠ - ٣٤٠هـ، أي ٩١٢ - ٩٥١م.

٢- إنه أنشأ الزهراء سنة ٣٢٥هـ.

٣- إن الحميدي صاحب جذوة المقتبس وهو ممن كتب عن الزهراوي وذكر تاريخ وفاته قائلاً: توفِّي بعد الأربعمائة.. نقول: إن الحميدي هذا توفِّي سنة ٤٨٨هـ.

٤- أن ابن حزم من علماء الأندلس يقول عن الزهراوي: وقد أدركناه وشاهدناه[١].

إذا وضعنا ذلك أمام أعيننا فإننا نقول بما يلي:

(أ) نجزم بخطأ من قال توفِّي سنة ٥٠٠هـ، وهما الدكتور زكي علي، والدكتور صلاح العفيفي. وبالتالي مَن قال: توفِّي سنة ١١٢٢م، ومن قال سنة ١١٠٦م، وهما دائرة المعارف الإنجليزية والدكتور صلاح العفيفي، إذ لا بد أن يكون توفِّي قبل ٤٥٦هـ، وهي سنة وفاة ابن حزم.

(ب) يبقى عن تاريخ وفاته من قال ٤٠٠هـ، وما حولها من قال ١٠١٣م، وهذا قول مؤرخي العرب المتقدِّمين، وعبارة ابن حزم تُشعِر بصحَّته.

(ج) وأما من ناحية الميلاد فما أثبتناه من تاريخ وفاته ٤٠٠هـ - ١٠١٣م تقريبًا يقطع بخطأ من قال: وُلد في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وذلك الخامس الهجري.

---

(١) نفح الطيب، ج٤، ص١٦٧.

(د) ومن ناحية أخرى لا بد أن يكون مولده بعد بناء الزهراء في أول ٣٢٥هـ.

(هـ) وعلى هذا لم يبقَ أمامنا إلا من قال بأنه وُلد في ٩٣٦م وهي تقابل ٣٢٥هـ.

ونلاحظ أن المتقدِّمين من مؤرخي العرب لم يذكروا تاريخ ميلاده.

(و) وأما كونه طبيبًا للأمير عبد الرحمن الناصر كما يقول الدكتور الهراوي والعفيفي، فلا يُعقل إلا على فرض أنه نبغ في سنٍّ أقلَّ من العشرين، ولذا نميل مع خير الله[1] الذي يقول إنه كان طبيبًا للحكم (توفِّي الحكم سنة ٣٦٦هـ).

ونخرج من هذا بأن الزهراوي وُلد سنة ٩٣٦م - ٣٢٥هـ، وتوفي ١٠١٣م - ٤٠١هـ، وهذا بالتقريب.

منزلة الزهراوي

في هذه الفترة الزاهرة بالأندلس الناهض نشأ أبو القاسم الزهراوي، فكان ثمرة ناضجة لهذا الغرس الطيب الذي وضعه الإسلام ورعاه أتم رعاية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الزهراوي لم ينلْ حظه من الدراسة والتقدير في البلاد العربية والإسلامية، لا في القديم ولا في الحديث.

فكل ما ذُكِر عنه في كتب الأعلام والتراجم والتاريخ نتَفٌ قليلة لا تغني ولا تكفي لإلقاء الضوء على هذا العَلَم وتلك القمة الشامخة من قمم العلم

(١) الطب العربي، ص١٧٢.

الرائعة، وكان الأجانب أسبق إلى هذه الدراسات في حركة الاستشراق، ومنهم من خَلُصت نيته، ومنهم من تعمَّد التشويه والتزييف.

آثار الزهراوي

والاضطراب الذي عانيناه في تاريخ ميلاده ووفاته، نُعانيه أيضًا في ذكر آثاره ومؤلفاته، فلم نجد إحصاء أو شبه إحصاء لكتبه، فمنهم من يقول: له تصانيف كثيرة منها:

١- التصريف لمن عجز عن التأليف.

٢- كتاب في أمراض النساء.

٣- كتب في استحضار الأدوية.

٤- كتاب في الكيل والموازين[١].

ومنهم من يقول: أشهر كتبه التصريف لمن عجز عن التأليف، ومنهم من يقول: ألَّف التصريف، ولا يشير إلى غيره.

ومن كل هذا نخرج بأن البستاني والأعلام وصناجة الطرب ذكروا كتاب المكاييل والموازين مع أنه عند الآخرين جزء من التصريف.

فما يعدُّه بعضهم كتابًا يراه الآخرون جزءًا من كتاب.

ونحن من جانبنا نكاد نجزم بأن له أكثر من مؤلَّف غير التصريف، في أكثر من فرع من فروع المعارف الإنسانية، فقد كان "فيلسوفًا كبيرًا، وعالمًا رياضيًا، وعالمًا فلكيًّا، وطبيبًا وكيميائيًّا"[٢].

---

(١) البستاني وصناجة الطرب والأعلام.

(٢) خير الله: الطب العربي، ص١٧٢.

والحُميدي وهو أقرب المؤلفين إلى عصره، بل يكاد يكون معاصرًا له يقول: "وعِلْمه الذي لم يُسبق فيه هو علم الطب"[1]، أي أنه كان يُعرف في أكثر من فنٍّ.

ولعلَّ آثاره ذهبت مع ما ذهب حين اجتاحت الأندلسَ المسلمة السمحة جحافلُ أوروبا المتبربرة المتعصِّبة، وقضت على آثارهم العلمية والحضارية، وأخلد كتبه ذكرًا (التصريف).

(٢) جذوة المقتبس، ص١٩٥.

كتاب التصريف وأين يوجد

يقع هذا الكتاب في ٣٠ جزءًا، وقد انتقل من الأندلس إلى جهات كثيرة، وتداولته الأيدي بالطباعة والترجمة، والنسخ والتقسيم، بجانب الاستفادة والدراسة، ولذا نرى الاختلاف يبلغ مداه بين مَن يذكر هذا الكتاب وأجزاءه.

فالهراوي يقول: "إن الجزء الحادي عشر هو الخاص بالجراحة"[١]. ويقول غيره: إنه الأخير، ويقول آخر: إنه الثاني عشر، ويقول آخر: إنه الثامن والعشرون.

والذي نخرج به من كل ما قرأنا أن الإجماع منعقد على أن الكتاب يقع في ثلاثين جزءًا، وأن أهم جزء فيه هو الجزء الخاص بالجراحة.

ترجمات الكتاب:

ولقد أصبحت نُسخ هذا الكتاب من الندرة بحيث إن باحثًا مثل الدكتور حسين الهراوي يقول:

---

(١) فضل العرب على الجراحة، ص٦.

"ولقد أخذنا نبحث عن اسم أبي القاسم بين المؤلِّفين، ونتساءل عن كتبه، فلم نجدها فيما تتداوله الأيدي، ثم بحثنا في دار الكتب السلطانية، والمكتبات الخصوصية، فلم نعثر على شيء منها.

وفيما كنا نقلِّب في آثار جدِّنا المرحوم الدكتور عبد الرحمن الهراوي، وقع في يدنا كتاب بعيد العهد، بعيد الطبع، موسوم بعنوان (التصريف) لمؤلفه أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، وهو الجزء الحادي عشر من ثلاثين جزءًا من الكتاب كله"[١].

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية مبكرًا، غير أنه لم يُعرف بالضبط تاريخ السنة ولا اسم المترجِم الذي نقل الكتاب[٢].

إلا أن المؤكد أن (المسيو جيراردي جيريمون) ترجم في القرن العاشر الجزءَ الأخير المتعلق بالجراحة[٣]. (لاحظ أن الهراوي يقول إن الجزء الحادي عشر هو الخاص بالجراحة).

أما الدكتور أسعد الحكيم فيقول: إن الكتاب الثلاثين هو أجمل ما كتب، وخيرة ما ابتدع في الجراحة إلى ذلك العهد، نقله (جيراردي كريمونا) إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، في مدينة طليطلة، ومنه نسخة في المكتبة الأهلية في باريس رقم (٧١٢٧)[٤].

وفي مكتبة باريس (١٤٣٩٠) رأينا الجزء الثالث، وترجمة الجزء الأول والثاني، تحت عنوان باللاتيني هو: (ليتي نيوربكانك تنن بركبتيكا) أي:

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الهراوي أيضًا.

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٦، ص٤٤٦.

«النظريات المجردة لا العمليات» للزهراوي.

والجزء ٢٨ تحت عنوان (ليبرسرفيتورس) وقد طُبعت هذه الأجزاء، وتُرجم الجزء الخاص بالعقاقير والأقربازين Therapeutic = العلاج (تيرابوتيك)، وقد ظهر التصريف بأكمله تحت اسم الزهراوية، وموجود برقم (٧٠١٦) من القسم اللاتيني.

ومما يدلُّ على أن مجموعة الكتاب كانت كاملة في القرن الرابع عشر أن (كلوديس) الذي يُعدُّ عظيمًا في الجراحة أخذ عنه ما يُعدُّ أساسًا لما كتبه هو.

وفي القرن الخامس عشر رأينا مقتبَسات من الزهراوي عند طبيب طلياني (فساري) أو (فيودي جراديليس)، وكان في أكثر مواضعه يستشهد بكتاب الزهراوي الخاص بالأطعمة أو الأغذية.

وفي القرن الخامس عشر أيضًا نشر الطبيب الطلياني (سندس دي أردوز بريس ده بيزارو) كتابًا خاصًا بالسموم في كل صفحة منه اسم أبي القاسم، ويدلُّنا ذلك على أن المؤلِّف كان يملك ترجمة (التصريف) كاملة.

ومما يزيد التأكيد بأن (سندس) هذا كان يملك التصريف كاملاً أن كثيرًا من أقواله مأخوذ من الأجزاء (٢، ٣، ٤، ٥، ٧، ٩، ١٣، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٠).

أما الجزء الثاني ففي العمليات (براتيك)، وأما ٣، ١٥ ففي الأدوية المركَّبة، وهذا هو السبب الذي أطلق من أجله على الكتاب اسم (Grand Indotrear جراند إنتيدوتير) لأن معظمه في مركَّبات الأدوية.

وفي سنة ١٦٠٩م طبعت مكتبة شنك (لايبلاشنك) هذا الكتاب.

وقد ظهرت ترجمتان لكل التصريف في القرن السابع عشر، ولكن لا نعلم إن كانتا تامَّتَين أوْ لا.

وفي سنة ١٩١٧م لم يكن لدى مكتبة باريس سوى النصف في القسم العبري.

والمكتبة البلينية هي أسعدها حظًا؛ لأنها تحتوي على الكتاب كاملاً، تحت رقم (٤١٤)، (٥١٥)، وهاك بيان محتويات الأجزاء:

الجزء ٢٦ يحتوي على نظام الطعام في حالات الصحة والمرض، وعند أحمد بن البيطار (فيودي جراديليس).

والجزء ٢٧ يحتوي على الأدوية البسيطة والأغذية مرتَّبة على حروف المعجم.. (شن سوب) ترجم هذا الجزء بالعبرية في مارسيليا في القرن الثالث عشر.

والجزء ٢٩ يحتوي على تحويل الموازين وعلاقاتها بالمقياس.

وهذه الأجزاء المتقدِّمة خطية.

أما المطبوع فإليك بيانه:

جزء النظريات والعمليات، وهو الأول والثاني، أما الأول فيحتوي على النظريات أو عموميات في الطب، وفيه ١٦ فصلاً، والجزء الثاني يحتوي على العمليات في الأمراض من الرأس إلى القدم، إلا الفصول الأخيرة فيحتوي فصل ٢٦ تدبير الأطفال، وفصل ٢٧ تدبير المسنِّين، وفصل ٢٨ في الروماتيزم، وفصل ٢٩ في الدمامل والخراريج، وفصل ٣٠ في السموم، وفصل ٣١ في الأمراض الظاهرة (الجِلدية)، وفصل ٣٢ في الحُمَّيات، وجزء ٢٨ تحضير الأدوية البسيطة، ترجمه إلى اللاتينية: أبراهام اليهودي.

وقد رد أحد المسلمين أو اليهود النسخة العبرية إلى اللغة العامية، وأحد الأدباء حوَّله إلى اللاتينية، واسم هذا الجزء باللاتينية: (سرفيتوريس)، وهذا العنوان ليس لهذا الجزء في الحقيقة، بل هو للأجزاء السالفة الخاصة بالأدوية المركَّبة، وهو ما سمَّاه أهل القرون الوسطى: (جراند إنتيدوتير)، وكتاب (سرفيتوريس) طُبع مرارًا، وهذا هو عنوان الطبعة المحفوظة بباريس بنمرة: (١٤٧١).

وفي باريس نسخة خطية برقم (١٠٢٣٦) أظهرت لنا شكل القوالب التي فيها نُقوش تظهر على وجوه أقراص الأدوية التي اخترعها الزهراوي.. وفيها نسخة أخرى عربية عبرية تحت نمرة: (١٢١٣).

ويقول (لكلارك): ونظنُّ أن هناك نسخة عربية في متحف إنجلترا، فقد وجدنا به تحت نمرة (٩٨) عنوان كتاب منسوب إلى الزهراوي، وهو خاص بتحضير العقاقير، وابتدأ فيه على طريقة (سرفيتوريس) حيث قال: اعلم أن الأدوية ثلاثة أنواع: معدنية أو نباتية أو حيوانية.. ولقد قرأنا هذا النصَّ بعينه في نسخة باريس العربية العبرية[1].

والدكتور أحمد عيسى يقول: له تصانيف مشهورة أفضلها كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وهو مؤلَّف من ثلاثين كتابًا، أول كتاب منها في العموميات الطبية، ثم يأتي درس الأمراض على اختلافها بالترتيب. ويمتاز الكتاب الحادي والعشرون بفصل خطير بحث فيه أبو القاسم في تفتيت الحصاة داخل المثانة، وكيفية صُنْع هذه العملية ذات الشأن.. (لاحظ أن غيره يقول: إن الحادي عشر هو الخاص بالجراحة).

---

(١) الدكتور حسن الهراوي: فضل العرب على الجراحة.

ثم يشير إلى ترجمة (جيراردي) للجزء الخاص بالجراحة، ويذكر أنه الثلاثون، ويصفه بأنه: كان دليل جرَّاحي أوروبا في عصر النهضة، وكتابَ التدريس في الجامعات المختلفة حتى مطلع القرن السابع عشر، وأهم قسم فيه هو القسم الأخير؛ لأنه يحوي جميع المعلومات الجراحية في زمانه بطريقة واضحة[1].

والدكتور زكي علي يصف الجزء الخاص بالجراحة قائلاً: هو أول كتاب موضَّح بالصُّوَر والأشكال في الجراحة، تُرجم إلى اللاتينية على يدَيْ (جيراردي كريمونا)، وهم مقسَّم إلى ثلاثة أقسام (يختلف التقسيم هنا عن تقسيم الذين ذكرناهم من قبل) أولها وأطولها: يبحث في الكَيِّ الذي شاع استعمالُه في الطب العربي، والقسمُ الثاني: يبحث في الجراحة العامة وعملياتها، ووصف أسلحتها، والقسم الثالث: في الخلع والكسور، ورسومُ الآلات في هذا الكتاب تبلغ مائتين، وكان الزهراوي يذكر بجوار كل موضع ما دلَّت عليه تجاربه[2].

ويذكر الدكتور العفيفي الكتاب قائلاً: وأكبرُ مؤلَّفاته كانت دائرة معارف طبية مكوَّنة من ٣٠ مجلدًا، وكانت تسمَّى التصريف، وقد تُرجم إلى اللاتينية والإيطالية مؤخَّرًا، وقد أصبح هو المرجع الأساسي في أوروبا في القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر.

ودائرة المعارف الطبية هذه تشمل إلى مدى كبير كل فروع الطب، والمجلَّد الأول هو مقدِّمة سمّاه المؤلِّف: النظريات، ونظرةٌ عامة إلى الطب.

---

(١) الدكتور أحمد عيسى: مجلة المجمع العلمي العربي، آلات الطب عند العرب.

(٢) الدكتور زكي علي: رسالة الطب العربي، ص٣١، ٣٢.

وينتقل الدكتور العفيفي إلى المجلد الحادي عشر فيقول: إنه عن الجراحة، موافقًا للهراوي، ثم يذكر أن المجلد السادس عشر: عن التغذية، والمجلد السادس والعشرون: عن الأغذية في الصحة والمرض، والمجلد الثامن والعشرون: عن علم الصيدلة والمواد الطبية، والمجلد التاسع والعشرون: عن الأوزان والمعايير.

وقد توصَّلت دارُ الكتب المصرية إلى طبعة عربية لاتينية موحَّدة للمجلد الحادي عشر (الخاص بالجراحة) تحت رقم: (٩٣٥) طب. وقد اطَّلع عليه الدكتور العفيفي، وذكر محتوياته وهي لا تخرج عن الذي ذكره الدكتور زكي علي[١].

وقبل أن نتركَ الحديث عن التصريف، ندع أحد معاصري الزهراوي يُبدي رأيه فيه، فقد قال ابن حزم عالم الأندلس المشهور في مجال إثبات الفضل لأهل الأندلس وتعداد مؤلفاتهم وآثارهم: "وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، وقد أدركناه وشاهدناه، ولئن قلنا: إنه لم يؤلَّف في الطب أجمع منه، ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنَصْدُقَنَّ"[٢].

(١) أبو القاسم الزهراوي.

(٢) نفح الطيب، ج٤، ص١٦٧ بتحقيق محيي الدين.

جهود الزهراوي في الطب

يعجب المرءُ حين يريد تحديد مكان الزهراوي في تاريخ الطب، فكيف لفرد واحد أن يشغل هذه المكانة ويملأها بكل عمق وطول وعرض؟ ثم هو مع ذلك يكاد يكون مغمورًا غير معروف لأحد من أبناء هذا العصر، فلم ينل حظَّه من الدراسة والتعريف والتقدير للآن.

ومما يؤلم أن الغربيِّين كانوا أكثر تقديرًا له، ومعرفة بفضله، فأشادوا به في كتبهم، وأعطَوه بعض ما يستحق، وكادوا أن يحلُّوه المنزلة التي تليق به[1].

فلم يكن وحيد عصره وفريد دهره، على حد تعبير مؤلِّفي ذلك الزمان ومؤرِّخيه، وإنما كان سابقًا لهذا العصر وذلك الأوان.

فحين يتحدَّث في كتابه عن جراحة العظام والتجبير والخلع والكسور، يقرر "أن هذا الفرع من الجراحة قد صار في أيدي العوامِّ والجهلة بالطب، ويشير إلى وجوب قصر مزاولته على الأطباء"[2] أليس هذا هو ما نشكو منه الآن؟

---

(١) قال الدكتور الهراوي: لم نعثر على شيء تقريبًا في الكتب العربية عن الزهراوي وكتابه، ووجدنا نتفًا قليلة من الكتب الإنجليزية والفرنسية خلال كتاب (مسيو لكلارك): «تاريخ الطب عند العرب».

(٢) الدكتور زكي علي، ص٣٢.

أليست هذه هي صيحات أطبائنا بعد أكثر من ألف عام؟

الزهراوي أول من وصف الاستعداد الخاص في بعض الأجسام للنزيف Haemophilia (هيموفيليا) فقد شاهد عدة حوادث نزيف في عائلة واحدة[١].

وقد ظلت الجراحات والتشريح على حال من الإهمال عند الغربيين، وكان يحتقرها العرب، كما كانوا يحتقرون كل صنعة يدوية[٢] حتى جاء أبو القاسم الزهراوي، فحطَّم بحديد جرأته تلك القيود، وبدد بساطع حُجَّته تلك الأوهام، ونهض بالجراحة من سافل محطها، إلى أسمى ما يليق بها من الكرامة والرقي، فخالف بعزيمته المألوف، وخرج على المعتاد المعروف، وحثَّ على درس التشريح، وطالب بتشريح الموتى، وقال: إن جهل التشريح جرَّ إلى نتائج وخيمة، ومَن يطالع كتابه لا يتمالك عن الاعتقاد بأنه قد شرَّح الجثث هو نفسه؛ لأن وصفه الدقيق لإجراء العمليات المختلفة لا يمكن أن يكون نتيجة نظريات فقط[٣].

فقد كان المثل الأعلى للجراحة عند العرب في القرون الوسطى، وكان بيتُه دار ندوة يحضرها ذوو المكانة من الاختصاصيين، وكان بيتُه مفتح الأبواب للسائلين، وطلاب العلم وطالبي التداوي بالليل والنهار[٤].

---

(١) خير الله: الطب العربي، ص١٧٢.

(٢) وقد لاحظ ذلك الزهراوي فقال في الجزء الحادي عشر إن السبب الذي لا يوجد من أجله صانع ماهر في العمل اليدوي أنه ينبغي لصاحبه أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح... إلخ، ولذلك قال أبقراط: إن الأطباء بالاسم كثيرون، والحقيقيُّون قليل جدًّا، من كلام (الهراوي).

(٣) خير الله: الطب العربي.

(٤) فضل العرب على الجراحة، للهراوي.

الزهراوي والجراحة

هو أول من استحدث رسوم الأعضاء والهيكل العظمي في كتبه[١]، وهو أول من رسم الآلات، وبيَّن طريقة استعمالها في المؤلفات الطبية، وقد أورد منه في كتابه حوالي مائتي شكل[٢]، وهو أول من وصف طريقة إخراج الأجسام الأجنبية من داخل المرِّيء بواسطة إسفنجة متصلة بخارج الفم بخيط متين[٣].

وهو أول من أصلح طرز عمليات البتر، وكان مَن قبله يبترون القسم المعتلَّ فقط، أما هو فقد أوصى بالقطع في الأنسجة السالمة عن بُعد من الأنسجة المريضة، كما هي الطريقة المتبعة اليوم.

كما بحث أيضًا في الالتهابات المتقيِّحة، فأوصى بخزع الخراجات القريبة من المفاصل في بادئ ظهورها.

كما أوصى باستئصال جميع الأجزاء المريضة في الالتهابات العظمية، وذلك

---

(١) أحمد بن عيسى والهراوي.

(٢) العفيفي وزكي علي.

(٣) أحمد عيسى، مجلة المجمع العلمي العربي، الجزء السادس.

خير ما توصي به الجراحة الحديثة[١].

ويُذكر له بالفخر أنه أوصى بألا يندفع الطبيب في العمليات الجراحية الصعبة دفعة واحدة.

كما كان الزهراوي أول من استعمل ربط الشريان لإيقاف النزيف قبل (أمبروز باريه) الفرنسي، ومع ذلك تنسب إليه ظلمًا.

وهو أول من استعمل (السنارة) في استخراج[٢] البوليبوس polyps.

وقد كان دائمًا ينبِّه قُرَّاءه في كل موضوع إلى اختيار العمليات، ووجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة.

كما كان أول من وصف العمليات الجراحية في كتابه، وطريقة إجرائها، والاحتياطات اللازمة لها، وفي كل فقرة كان يضيف الطرق التي يُجري بها عملياته، وملاحظاته، ومعلوماته السابقة، ويكتب التقارير عن الحالات التي يسجِّل فيها انتصارًا جديدًا، يشهد بذلك الفصل الذي عقده عن استخراج السهام[٣].

وهو أول من وصف عملية الحصاة عند النساء عن طريق المهبل، وكانت تعملها رئيسة الممرضات تحت إشراف أحد الأطباء[٤].

---

(١) أسعد الحكيم: مجلة المجمع العربي، الجزء الخامس.

(٢) الدكتور زكي علي: رسالة الطب العربي، ص٣٣.

(٣) العفيفي والهراوي.

(٤) الهراوي «فضل العرب على الجراحة».

ما انفرد به الزهراوي من العمليات الجراحية

جراحة الشرايين:

كان يستعمل هذه العملية في قطع الشريان الذي في الأصداغ لمداواة الصداع، وسننقل وصف أبي القاسم لها؛ لأنه أول من ربط الشريان كما تقدَّم.

"اسلخ الجلد برفق حتى تصل إلى الشريان، ثم تلقي فيه سنارة وتجذبه إلى فوق حتى تخلِّصه من الصفافات التي تحته من كل جانب، فإن كان الشريان رقيقًا فتلويه بطرف السنارة، ثم تقطع منه جزءًا بقدر ما يتباعد طرفاه، ولا يحدث نزيفًا، فإنه إذا بتر وانقطع لم ينزف الدم.. ثم استفرغ من الدم من ٣ إلى ٦ أواق، وإن كان الشريان عظيمًا فينبغي أن تربطه في مكانين بخيط مثنى قوي، وليكُن الخيط من إبريسم أو من أوتار العود؛ لئلا يسرع إليها العفن قبل التئام الجرح، فيحدث النزف، ثم اقطع ما بين الرباطين، وإن شئت فاكوِه، ثم احشُ الموضع بالقطن البالي، وضع الرفايد المحكمة".

وأول من استعمل هذه الطريقة هو أبو القاسم، وهي لا تزال مستعملة إلى الساعة.

والزهراوي أول من أدخل الإبريسم أو الحرير في ربط الشريان، وهو أول من أدخل أوتار العود فيها، وهي مصنوعة من جدار أمعاء الغنم، وهو ما يُتَّخذ منه الخيوط الجراحية في الوقت الحاضر.

عملية استخراج الحصى:

هذه العملية هي التي ابتدعها أبو القاسم، ننقلها من الكتاب الموجود بأيدينا[1] ص٢٨٢، وطريقته فيها: "أن يجلس المريض ويضغط مساعد

(١) الهراوي «فضل العرب على الجراحة».

الجراح على مثانة المريض، وهو بين يدي الجراح نفسه؛ ليحضر الحصوة عند عنق المثانة، ويضع الجراح أصبعه في مقعدة المريض، ويضغط الحصى أيضًا، ثم يشقُّ فيما بين المقعدة والخصيتين، لا في الوسط، ولكن إلى جانب الإلية الأيسر، ويكون الشقُّ على نفس الحصاة، ويضغط على الحصوة بالإصبع إلى الخارج.

ويكون الشقُّ موروبًا أو عريضًا من الخارج، وضيقًا من جهة المثانة، وتخرج الحصوة بالضغط".

ثم قسم الحصى على حسب شكلها لا تركيبها، فوصف ذوات الزوايا، وذوات الحروف، والملساء.

ثم قال: "فإذا كانت الحصاة كبيرة جدًّا فتحايل على كسرها بالكلاليب، حتى تخرج قطعًا".

وتُعرف عملية أبي القاسم اليوم باسم "خرق كوكس"، وتستعمل في مواضع أخرى غير الحصوة، بقليل من التصرف.

كذلك عملية الشق في إخراج ما يسقط في الأذن مما لا يزال استعماله إلى اليوم، وبالمثل طريقة غسيل الأذن بالمحقن، وهذا المحقن كان يصنع من النحاس أو الفضة.

جراحة العيون (علاج الشعرة):

الكي بالنار.

الكي بالدواء المحرق.

القطع والخياطة.

بقصب الغاب، وتلك مستعملة إلى اليوم.

أما القطع والخياطة فذلك أن تقطع من فوق ظاهر الجسم شكل ورقة الآس، ومن باطنه شِقًّا واحدًا، ثم تخيط التي في الظاهر.

والفرق بين العمليتين القديمة والحديثة ينحصر في عمق الشقِّ، وفي أن يقطع شبه ورقة الآس في الغضروف بالجفن دون الجلد.

الظفرة وعلاجها: أن تدخل إبرة تحتها، وترفعها، ثم تدخل تحتها شعرة خيل، ثم اسلخ بالشعرة جانب الظفرة الذي يلي الحدقة، كأنك تنشرها بالشعرة إلى آخرها، ثم اقطع الباقي، أي الذي ليس على الحدقة بمبضع، ويمكن سلخها بالمبضع الأملس، وهذا الأخير هو المستعمل إلى اليوم.

وهذه العملية لا يزال استعمالها إلى اليوم، وغاية ما في الأمر ألا تقطع الظفرة كلها، بل اقطع الجزء الموجود منها على القرنية، والوِهِ تحت الملتحمة.. والنقطة التي تستحق العناية هي طريقة القطع أولاً والمبضع ثانيًا، وهو لا يزال مستعملاً إلى الساعة.

علاج السيل في العين: هي عروق دموية تمر فوق القرنية تلقط بالسنارة، ثم تقطع كل واحد بالمقصِّ، وتعمل هذه العملية الآن بالمشرط[1].

الجرد: طريقته واستعماله وآلته الحديثة تمامًا.

الكمية: (المِدَّة الموجودة خلف القرنية): تشقُّ القرنية بمبضع رقيق في الإكليل، وهذه العملية بنصِّها وفصِّها في الكتب الحديثة.

في علاج الماء النازل في العين: خذ مقدحًا وأدخله في الإكليل حتى الماء، ثم اكْبِسْه أسفل، فإنها لا تستعمل إلا في النادر؛ لأن لها مضاعفات جمة، ولكن

(١) الهراوي: فضل العرب على الجراحة، نقله من كتاب الزهراوي نفسه.

المقدح لا يزال من الآلات الحديثة.

اللحم الزايد في اللثة: ويسمونه أيضًا (polyps أيبوليس) يقطع ويكحت مكانه، أو يُكوى.

جراحة الأسنان: الخلع بالكلاليب، ونشر الأسنان الزائدة، وتشبيك الأسنان المتحركة بخيوط من ذهب.

في قطع اللوزتَين: يُكبس بآلة، ثم تغرز صنارة في اللوزة وتُشد إلى خارج الفم، ثم تقطع بآلة كالمقراض، وهذه عملية حديثة أيضًا، ولكن جرى كثير من التعديل في شكل الآلات.

ومما يستحق الذكر أن المؤلِّف كان يروي تجاربه الشخصية، وما كان يقابله من الصعوبات، وكيف ذلَّلها.

وكما يستأصل أورام اللوزتين كذلك يستأصل أورام اللَّهاة على الطريقة عينها.

الأورام:

غيَّر الميكروسكوب اليوم وجه الطب من القديم إلى الحديث، فتقسيم الأورام اليوم ميكروسكوبي محض، أما في زمن المؤلف فكانت تختلف باختلاف محتوياتها من سائل أو يابس، والجهة من الجسم التي فيها المرض، فإن الورم الذي يحدث في الرأس قسمٌ بذاته غير الذي يحدث في المعدة، والورم الذي يحدث في جسم لحمي غير الذي يحدث في مِفصل.

ومن الأورام ما يبطُّ أو يشقُّ، ومنها ما يُقطع عليه كورقة الآس، أو شكل هلالي، أو ذو ثلاثة شقوق، أو ما هو مستدير، وينبغي إذا كان الورم عظيمًا أن يفرغ ما فيه من الماء أو الصديد على عدة مرات -لا سيما إن كان المريض

ضعيفًا أو مُسنًّا- ويُحشى مكانه بالقطن البالي، فإن عرض نزيف يُغسل بالماء البارد أو الخَلّ، وبعض الأحيان بالخمر، ويُنهى عن استعمالها؛ لأنها محرَّمة[1].

قطع القصبة الهوائية: تشقُّ تحت ثلاث أو أربع دوائر عن القصبة بالعرض بين غضروفين في الصفاق، ويُخيط الغضروف في الجلد.

علاج نتوء الشرايين أو Aneurism **الأنيورويزم**: كان يستأصله بين رباطين، وكذلك كان يستأصل سرطان الثدي بشقٍّ هلالي.

ويعالج فتاق السرة بإدخال الأمعاء إلى البطن بعد فتح Pretoneum (الثرب)، ثم عقده بأنشوطة، وربط أي شريان يعوق العمل، ثم يشدّ الورم في أربعة مواضع، ويُترك حتى يتعفَّن، ويسقط من نفسه.

وكان يستعمل طريقة البزل في الاستسقاء، بإدخال أنبوبة طرفها مبريٌّ كبرية القلم بعد شقٍّ جدار البطن، وهذه لا تزال مستعملة إلى الآن.

كيفية شقِّ Hydrocele **(الأدرة المائية) أو القيلة**: طريقة الشقِّ وإخراج الخصية كأحسن الطرق المعروفة الآن، وإنما كان أبو القاسم يفضِّل قطع الصفاق بأكمله، وهذا لكي لا يعود الماء، وذلك ما يوصي به أكثر الجرَّاحين..

أما عملية الفتاق الجراحية فهي أن تشقَّ عليها، وتدخل الأمعاء إلى البطن، ثم تستأصل كل ما هو أمامك: خصية وأوردة، وما أشبه ذلك بعد ربطها من جهة البطن، ثم يشدُّ الجرح بالرفايد بعد الربط الوثيق، ولكن هذه العملية قلَّما كانت تُعمل، والمفضَّل هو طريقة الكيِّ التي شرحناها آنفًا[2].

---

(١) الدكتور حسن الهراوي، فضل العرب على الجراحة، ملخَّصًا من كتاب الزهراوي الخاصّ بالجراحة.
(٢) الهراوي.

كما يصف الزهراوي في كتابه استئصال العقد اللمفاوية الرقيبة المزمنة[1]. كما كان أول من حوَّل مجرى البول إلى الشرج في الرجال، وإلى المِهبل في النساء[2]. ومن كل ما حواه كتاب الزهراوي عن الجراحة يمكن أن نقول: إننا وجدنا الموضوعات الآتية أكبرها فائدة:

استسقاء الرأس. ⇦	زوائد لحمية الأنف.
عملية استئصال اللوز. ⇦	إزالة الأورام المختلفة بالحنجرة.
فتحة القصبة الهوائية.	
اللسان والأورام التي تحدث أسفلها.	
إصلاح صدور الرجال التي تشبه صدور النساء.	
نزف الشريان مع ربط أطراف النهايتين للشريان المصاب.	
علاج السرطان.	
علاج الاستسقاء. ⇦	بزل استسقاء البطن.
علاج الأظافر الغائرة في أصابع الرِّجْل.	
علاج الأطفال الذين يولدون دون مجرى بولي خارجي ظاهر، أو مجرى ضيق، أو المجرى في غير موضعه.	
الختان والأخطاء الشائعة في عمليته، علاج النقص الحاد في البول.	
تحويل مجرى البول إلى الشرج عند الرجال، وتحويل مجرى البول إلى المهبل عند النساء.	
الفتق العاني. ⇦	علاج امتداد كيس الخصية.
علاج الدوالي. ⇦	علاج الخنوثة.
علاج نزف البواسير. ⇦	علاج الناسور الشرجي.
علاج الحروق. ⇦	جراحة الرأس والرقبة.
الجروح الباطنية. ⇦	البتر.
علاج الأصابع المتشابكة. ⇦	استخراج الأسهم.
قطع الأوردة. ⇦	الحجامات[3].

(١) أحمد عيسى، مجلة المجمع العلمي.

(٢) العفيفي.

(٣) العفيفي: أبو القاسم الزهراوي.

وكان أول من فرَّق بين الجراحة وغيرها من الموضوعات الطبية، وجعلها أساسًا قائمًا على درس التشريح[1]. وقد وصف وضع (والشر) وصفًا دقيقًا. وقد أجرى عملية تفتيت الرأس في الأجنة ذات الرأس الضخم[2].

كما كتب عن الأورام الرحِمية وعنق الرحم وتقرُّحه، كما ذكر التوليد بآلات الوضع[3].

هذه نماذج من جهود الزهراوي في سبيل الجراحة، وهي كما ترى جهود جبارة خارقة للعادة بالنسبة لتلك العهود السحيقة.

(١) خير الله: الطب العربي، ص١٧٢.

(٢) زكي علي: رسالة الطب العربي، ٣٣.

(٣) خير الله: المصدر السابق.

الزهراوي والكي

توسَّع أبو القاسم في استعمال الكَيِّ، وأشار إلى أهميته، فشاع بفضل تعضيده له، وكان يستعمله في أكثر الأمراض، ويفضِّله على المِشرط مخالفًا بذلك تعاليم اليونان[1] في الأورام على كافّة أنواعها، وفي كل عضو من أعضاء الإنسان.

وللكيِّ أدواتٌ كثيرة منها النار، ويعتبرها أبو القاسم أفضلها؛ لأنها جوهر مفرد، ولا يتعدَّى فعله العضو المكوي، ولا يضرُّ عضوًا آخر متصلاً به، على عكس الدواء المحرق، فإنه يتعدَّى فعله إلى ما بعد الأعضاء، وربما أحدث في العضو مرضًا تتعسَّر مداواته، وربما قتل.

وهذا يطابق تمامًا التفسير الحديث الذي يقول: إن هذه الأدوية المحرقة قد تُمتصُّ إلى جميع أجزاء الجسم، وقد تكون بداية تعفُّن[2].

وقد كان الزهراوي أول من قسَّم الحروق إلى درجات ثلاث:

الأولى: أن تحرق الجلد فقط.

---

(١) خير الله.

(٢) الهراوي.

الثانية: أن تحرق الجلد وشيئًا من اللحم (الشحم والأنسجة التي تحتها).

الثالثة: أن تحرق كل شيء حتى العظم[1].

وقد وصف استعمال الكي للأجزاء الآتية وأعراضها:

وجع الأذن. ⇦	في السكتة المزمنة.
الفلج. ⇦	الصرع.
البلاخوليا. ⇦	الماء النازل في العين.
الدمع المزمن. ⇦	استرخاء جفن العين.
في الشعرة (وهذه الطريقة حديثة).	
في أمراض الرئة.	
في السعال. ⇦	في ضيق التنفس.
في أمراض المعدة والأمعاء.	
في الرأس.	
في الأنف. ⇦	الحلق.
الطحال. ⇦	الكليتين.
عرق النِّسا. ⇦	البواسير.
الناسور. ⇦	الرحم.

وعالج بالكي أيضًا تقلُّصات الوجه الاختلاجية المؤلمة، وكان يكوي فيها خلف الصدغ، أو عند ملتقى الشفتين[2].

كما استعمل الكي للجزام الدرني[3]. كما استعمل الكي في السرطان.

---

(١) العفيفي.

(٢) أسعد الحكيم: مجلة المجمع العلمي.

(٣) الهراوي: فضل العرب على الجراحة.

وأحسن مواضع الكي كان يستعمله في الأكلة -أي Gengren (الغنغرينة)- وهو فساد يسعى في عضو ويخشى على الباقي، بل على الحياة منه.

وكذلك استعمل الكي في الزوائد التي تحصل في القدم. وأجمل استعمال هو إيقاف النزيف الحادث من قطع شريان، وطريقته أن تضع أصبعك السبابة على الشريان المقطوع، وتحصر الدم تحت أصبعك، ثم تكوي المكان بعد رفع أصبعك عنه.

وهذه طرق إيقاف النزيف التي كانت مستعملة:

١- بالكي.

٢- بقطع نفس الشريان فتتقلص أطرافه.

٣- بأن تربطه بالخيوط ربطًا وثيقًا.

٤- بوضع الرفايد.

٥- بالضغط بالأصبع.

٦- بالماء البارد.

وكل هذه مستعملة إلى الآن، إلا الثاني منها[١].

وقد كانوا يستعملون فيه كل ضروب الصبر والجلَد مما لا يُتصوَّر أن يتحمله إنسان، فإن خراج الكبد كانت طريقة العلاج المستعملة فيه أن تحرق بمكواة جميع الطبقات المكوِّنة لجدار البطن حتى تصل إلى الكبد، ثم تحرق نفس الكبد، حتى يخرج الصديد، وقد يضطر الجرّاح لتغيير عدة مكاوٍ إذا بردت، وقد نصح الزهراوي بضرورة حصول التصاقات بين الكبد والبريتون قبل فتح

(١) الهراوي: نفس المصدر السابق.

خُرَّاج الكبد؛ حتى لا يتسرَّب الصديد إلى البطن، ويميت المريض.

وبالطبع مثل هذه العملية تكون خالية من أي تعفُّن.

وتستعمل هذه الطريقة نفسها في استخراج ماء الاستسقاء[1].

(١) الهراوي والعفيفي.

الزهراوي وجراحة العظام

وتبلغ عبقرية أبي القاسم حدًّا يجعله لا ينسى فرعًا آخر من فروع الجراحة، هو جراحة العظام أو التجبير كما كانوا يسمُّونه.

ففي القسم الثالث من المجلد الخاص بالجراحة توجد موضوعات كثيرة، فهو يتكلم عن الكسور والخلوع في الأجزاء الآتية من الجسم:

كسور الجمجمة.	الأنف.
الفك السفلي.	الترقوة.
منطقة الكتف.	الضلوع.
العضد.	الساعد.
اليد والأصابع.	الفخذ
الساق.	القدم.
أصابع القدم.	الكسور المصحوبة بجروح.
علاج التشوُّهات.	علاج الأعضاء التي تضمر بعد التئام الكسور.
الخلوع بالنسبة للفك.	الرسغ.
الترقوة.	الأصابع.
إصابات العمود الفقري[1].	
خلع الحوض.	
خلع الركبة.	خلع المفصل وأصابع القدم[2].

(١) العفيفي: أبو القاسم الزهراوي.

(٢) المرجع السابق.

كما ذكر الشلل الذي يحدث عقب كسر العمود الفقري[1]. وتكلَّم عن الخلع المزمن وطرق علاجه، وهو أول من اشتغل بهذا الموضوع[2].

(١) زكي علي: الطب العربي «رسالة».

(٢) أسعد الحكيم: مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد السادس.

الزهراوي والآلات الطبية

ليس بغريب أن نعقد فصلاً خاصًا بهذا العنوان، فإن عناية أبي القاسم بالنظر في الآلات واستحداث كثير منها، مثل صنارة السليلة الأنفية (الوليس)[1]، وكذلك اختراع منظار المهبل[2]، كما له الفضل في إحداث كلاليب تفتيت الحصوة، وما أدخله من تحسينات على الآلات، وما ذكره عن معادنها وخاماتها، كل ذلك يدلُّ على نبوغ عجيب، وعبقرية فذَّة، ويشهد ببراعته في فنِّه.

وتقدَّم أن أبا القاسم كان أول من استحدث رسم الآلات الطبية، ووصفها في مؤلَّفاته، وقد كانت هذه الآلات تُصنع إما من الحديد، أو الذهب، أو النحاس.

ويختلف استعمال كل نوع باختلاف ظروفه، فأبو القاسم كان يفضِّل استعمال الحديد على الذهب في آلات الكي قائلاً في ذكاء متوقِّد وقوةِ ملاحظةٍ نادرين: "إن الكي بالحديد أحسن وأفضل من الذهب للأسباب الآتية:

---

(١) زكي علي: رسالة الطب العربي، ص٣٤.

(٢) خير الله: الطب العربي، ص١٧٢.

١- إذا حميت مكواة الذهب في النار لن تعلم درجة حماوتها بسبب لونها.

٢- ثم إنها تبرد سريعًا.

٣- وإذا اشتدَّت الحرارة صهرت وذابت.

فلذلك صار الكي بالحديد عندنا أسرع وأقرب للصواب"[١].

وإذا عرضنا هذا الكلام على أحدث الطرق العلمية نجد أن أبا القاسم الذي كان يعتمد على حواسِّه الخمس في استقصاء أفضلية الحديد على الذهب على حق في قوله: إن لون الذهب يمنع معرفة درجة الحرارة التي نريدها، هل هي الحمراء أو البيضاء؟، مما لا يتيسَّر معرفته من الذهب في غير الظلام.

والمعروف في الطبِّ أيضًا أن الكيَّ يكون على درجة الحرارة الحمراء، فإنها تكوي المكان كيًّا موضعيًا، فتزيل الأثر الذي نريد إزالته، وأما البيضاء فإن المعادن تكون فيها كالمِشرط، تقطع ولا تكوي.

أما النقطة الثانية وهي أنها تبرد سريعًا، فمن المعلوم أن درجة حرارة الذهب النوعية هي (٠٣٢٤ر) والحديد (١١٣٨ر)، ولذا نجد أن هذا الذي كان يعتمد على حاسة النظر فقط لم يخطئ نظره في (٠٨٨١٤ر) من درجة الحرارة.

أما النقطة الثالثة وهي الصهر، فقد كفلت الطبيعة أيضًا صدقها؛ إذ إن درجة صهر الحديد (١١٠٠)، والذهب (١٠٦٤). وإنا لنعجب من قوة النظر الحادة التي مكَّنت صاحبها من الشعور بفرق ٣٦ درجة حرارة بعد الألف.

---

(١) الهراوي: فضل العرب على الجراحة.

أشكال الآلات

كما تختلف أشكال الآلات أيضًا بسبب:

١. اختلاف المكان المراد كيِّه.

٢. اختلاف العنصر المراد الكيِّ به.

٣. اختلاف اتِّساع الكيِّ.

فإذا كانت الأماكن ظاهرة اختلفت أشكال الآلات باختلاف شكل الجزء المراد كيُّه.

وهذه هي أشكال الآلات:

١. المكواة الزيتونية لكيِّ الرأس والمواضع المسطحة.

٢. المكواة القرنية في كيِّ الرأس إذا أريد التأثير في العظام.

٣. المكواة المسمارية لكيِّ الرأس ووجع الصداع.

٤. المنشارية في كيِّ الحاجبين والأنف.

٥. النقطة في المواضع الضيقة.

٦. الهلالية في كيِّ جفن العين عند استرخائه.

٧. القمع في كيِّ النواسير.

٨. السكينية للشفة.

٩. مكواة الأسنان.

١٠. ذات الثلاث شعب للرئتين.

١١. ذات السفافيد لخلع العضد.

١٢. مكواة المعدة.

١٣. الميل لتدخل الكبد.

١٤. المسمارية للظَّهر.

١٥. مكواة للفتق.

١٦. الآلات لكي سائر الأعضاء.

المشارط:

١. المبضع لشق الخراريج.

٢. مبضع السلخ لتشريح الجلد مما تحته.

٣. مبضع آخر للسلخ غير حاد.

الجفت:

١. الجفت اللطيف للأشياء التي في الأذن.

٢. جفت آخر.

٣. محقن فضة لحقن الأذن.

٤. مبضع لفتح الأذن.

٥. السنانير.

٦. المبضع الأملس للعيون.

٧. آلة الجرد (الكحت).

٨. المقدح ويستعمل لماء العين.

٩. الكلاليب.

١٠. قاطع اللوزة (أسنانها حادة كالسكاكين).

١١. جفت الحلق.

١٢. مسبار (أنواع).

١٣. سنانير (أنواع).

١٤. مشارط لسلخ الأورام[١].

والآن نعرض في الصفحات التالية والمقابلة نماذج من هذه الآلات موضحة بالرسم وعليها أسماؤها العربية بعبارات الزهراوي ذاتها، وهي في نسخة دار الكتب مع التصريف.

(١) الهراوي: فضل العرب على الجراحة.

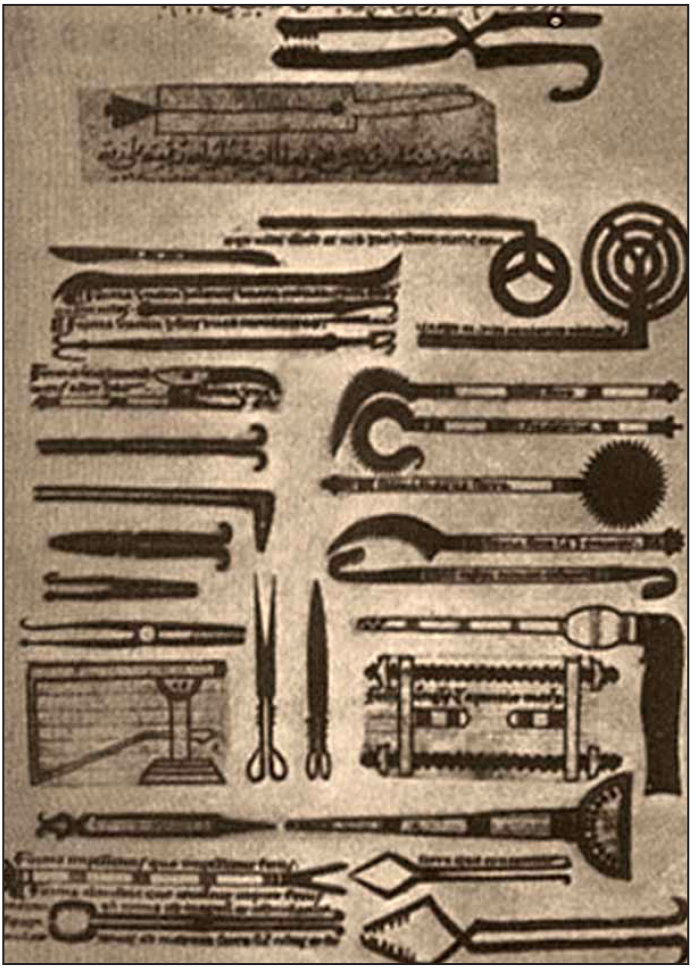

شکل (۱)

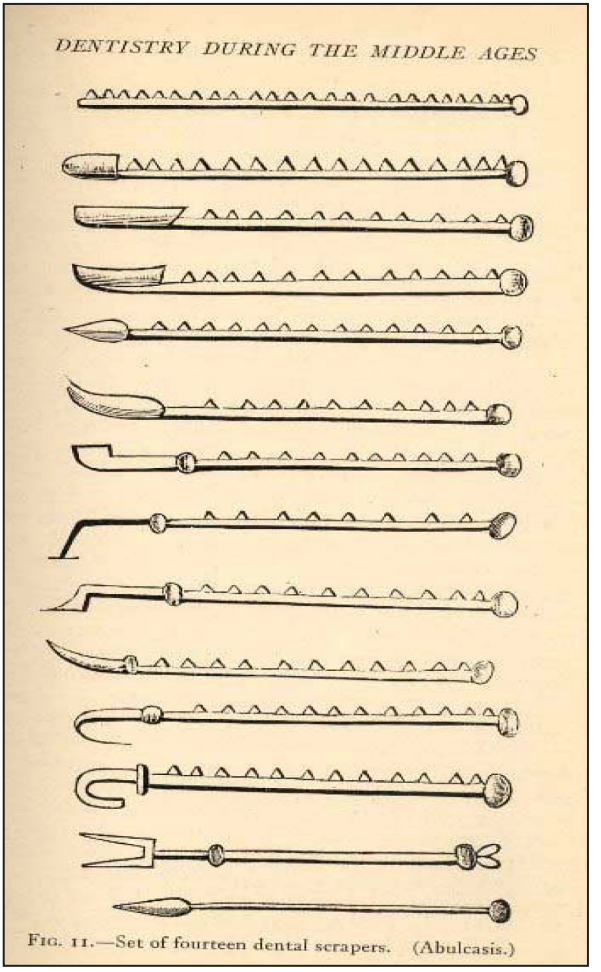

DENTISTRY DURING THE MIDDLE AGES

FIG. 11.—Set of fourteen dental scrapers. (Abulcasis.)

شكل (٢)

شكل (٣)

شكل (٤)

آلات جراحية يصفها الزهراوى في أحد كتبه

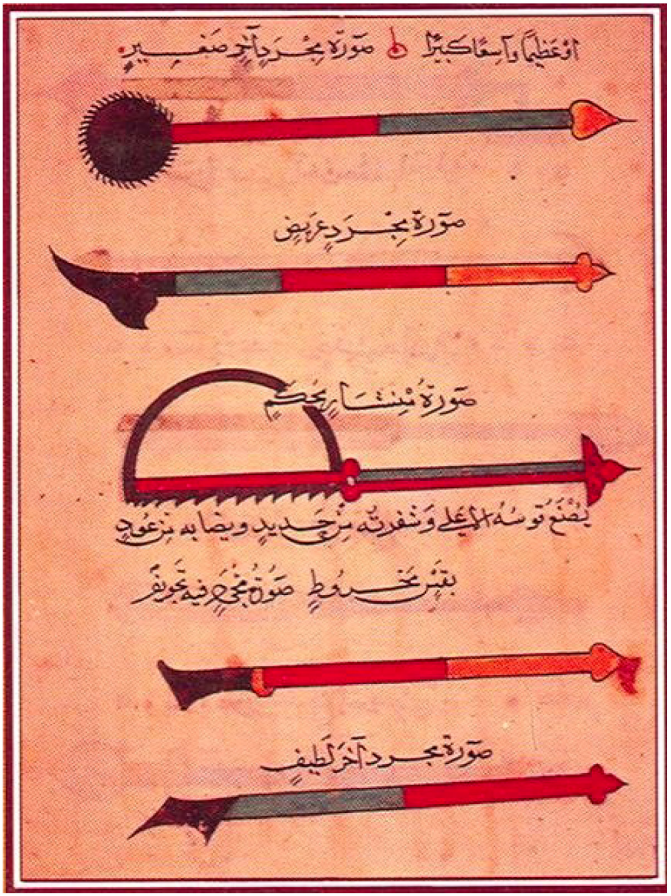

شكل (٥)

أبو القاسم والأدوية

ولم يكن الزهراوي طبيبًا وأستاذًا جرّاحًا فقط، بل كان مع كل ذلك عالمًا بفنِّ الصيدَلة، وله في الأدوية المفردة والمركبة نظرات جعلت له المنزلة العليا في هذه الناحية أيضًا.

قال البستاني: وله كتاب في استحضار الأدوية تُرجم إلى اللاتينية في البندقية ١٥٨٩م، وتذكره دائمًا كتب الأعلام والتراجم بأنه خبير بالأدوية المفردة والمركبة (عيون الأنباء – معجم المؤلفين – جذوة المقتبس – الصلة – كشف الظنون – معجم المطبوعات).

وليس لدينا ما يمنع من أن يكون له أكثر من كتاب غير التصريف، كما أشرنا في فصلٍ سابق، ومع ذلك فنحن نرجح أن هذا الذي أشار إليه من قال بأن له كتبًا في الأدوية ليس إلا الجزء الخاص بالأدوية من التصريف، وقد كان التصريف عبارة عن كتب لا كتاب، كما عبر ابن حزم معاصر الزهراوي.

وقول الهراوي: إنه الجزء الخاص بالعقاقير والأقرباذين Therapeutic (ثيرابوتيك)، ولقد رأينا دائمًا مؤلِّفي القرون الوسطى يحيلون القارئ على

الزهراوي، أو كتاب المركبات الأكبر IndeTreat (أنتيدوتير).

والجزء ١٦ من التصريف هو الخاص بالأطعمة المختلفة في الأمراض المختلفة، وقد أخذ عنه ابن البيطار مقتبسات جمَّة مذكور بجانبها أنها مُستخرجة من كتاب الزهراوي.

وأبلغ هذه الاقتباسات كيفية صنع الخبز المركَّب من أحسن أنواع القمح، والذي يخمَّر، ويكون خفيفًا خاليًا من الشوائب.

وفي القرن الرابع عشر استشهد (دي كلوديس) الذي يعدُّ عظيمًا في الجراحة في كثير من المواضع بكتاب المركبات، وقد ذكر بالاسم الجزأين ٢١، ٢٣.

وفي القرن الخامس عشر رأينا طبيبًا طليانيًا (فساري) أو (فيودي جراديليس)، يستشهد بكتاب الزهراوي الخاص بالأطعمة أو الأغذية.

وفي القرن الخامس عشر أيضًا نشر الطبيب الطلياني (سندس دي أردو وزيري سده بيزارو) كتابًا خاصًا بالسموم، وفي كل صفحة منه اسم أبي القاسم... وفي هذا المؤلَّف معلومات عن الزهراوي لا تقلُّ عن نصفه.

وفي القرن الثالث عشر ترجم (شن سوب) الجزء ٢٧، ويحتوي على الأدوية البسيطة والأغذية مرتَّبة على حروف المعجم بالعبرية في مرسيليا.

وقد طُبع الجزء ٢٨ عن تحضير الأدوية البسيطة مترجمًا إلى اللاتينية، ترجمه إبراهيم اليهودي، وقد ردَّ أحد المسلمين أو اليهود النسخة العبرية إلى اللغة العامية، وأحدُ الأدباء حوَّله إلى اللاتينية.

ولقد قسَّم الزهراوي الأدوية البسيطة إلى ثلاثة أنواع: (معدنية، نباتية، حيوانية). وفي هذا الكتاب معلومات رائدة عن تاريخ المادة الطبية، وتاريخ الكيمياء، والفنون الصناعية. ولابن العوّام كتاب في الزراعة قال فيه: إنه ليس

أحسن من طريقة الزهراوي في استخراج ماء الورد، ونقل عنه ابن البيطار في كتابه المفردات كيفية استخراج الزيت.

ومن العجيب أن نجد الزهراوي يصف بدقة كيف يصنع قالبًا من الأبنوس أو البقس أو العاج، ينقش فيه اسم الأقراص الطبية، ونسخة باريس الخطية (١٠٢٣٦) أظهرت لنا شكل هذه القوالب غير أننا لم نجدها في النسخ المطبوعة، كذلك وجدنا في الخطبة المذكورة رسم المرشحات ولم نجدها في المطبوع. ولم يكتفِ أبو القاسم بتحضير الأدوية، بل إنه اشتغل فوق ذلك بكيفية حفظها، وعيَّن معدن الأوعية التي توافق كل واحد منها.

ويُظنَّ أن في متحف إنجلترا نسخة عربية من كتاب الزهراوي (الجزء الخاص بالعقاقير) تحت رقم ٩٨.

ونكرِّر هنا ما قلناه من أن الزهراوي لم يكن طبيبًا فحسب، بل كان علما كيميائيًا، وفلكيًا وفيلسوفًا كبيرًا.

الزهراوي في تاريخ الطب

يمثِّل أبو القاسم الزهراوي مرحلة مهمَّة من مراحل تطوُّر الطب وتقدُّمه، لما ابتدعه في فنونه وألوانه، وبما حفظه وشرحه من طبِّ الأقدمين.. شغل أبو القاسم قرونًا عدة من تاريخ الطب، وملأ طبه العالَم مئات السنين، فقد عاشت الدنيا عيالاً على طِبِّه منذ القرن الحادي عشر وحتى القرن الخامس عشر[١].

وكان طبُّه هو الأساس الذي بُنِي عليه في عهد النهضة العلمية الحديثة.

فقد كان كتاب التصريف دليلَ جرَّاحي أوروبا في عصر النهضة، وكتابَ التدريس في الجامعات المختلفة بأوروبا كجامعة سالرنو ومونبليه وغيرهما حتى القرن السابع عشر[٢].

وقد استشهد (ج يدي شولياك) بأقوال أبي القاسم في الجراحة أكثر من

---

(١) كامبل، عن العفيفي: أبو القاسم الزهراوي.

(٢) خير الله: الطب العربي، ص١٧٢.

مائتي مرة[1]. وقال الأستاذ بوشون في كتابه (تاريخ الطب والمذاهب الطبية) ص٥٣٢ ما تعريبه:

إن جراحة أبي القاسم التي ترجمها حديثًا (لوسين دكران) وهي -وايم الحقِّ- مبتكرة وأهلٌ للمديح الكثير الذي وصفها به (فبريس دكا بندانتي) القائل: إن أبا القاسم يعدُّ المثل الأعلى للعلم. إلى أن قال: وقد حييت بهذا الطبيب الجراحة العملية الخطيرة، المندرسة من عهد بعيد[2].

وجاء في خطاب الأستاذ (فورغ) الجراح الحالي الشهير الذي ألقاه في تشرين الثاني سنة ١٩٢١م في الاحتفال الذي عُقد احتفاء بمرور سبعمائة سنة على جامعة مونبيليه ما تعريبه:

في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر وضع العرب واليهود -وكان اليهود الصلة بين العرب والفرنج- في مونبيليه أسس المعارف الطبية، وكانت مدارس الأندلس الطبية حافلة زاهرة كمدارس الطب في آسيا، وفي القرن التاسع (والصحيح[3] الحادي عشر) ظهر في قرطبة أبو القاسم الذي أحدثت كتبه الجراحية في جامعتنا هذه أعظم تأثير، يدلُّنا عليه استشهاد الأستاذ (ج يدي شولياك) به أكثر من مائتي مرة[4].

وقد كان الزهراوي رئيسًا وعميدًا لمستشفى قرطبة ومدرسة الطب بها، وقد اعتاد التلاميذُ من أنحاء أوروبا والامبراطورية العربية الذهاب إلى قرطبة؛ لحضور محاضراته وجولاته في المستشفى والعيادة الخارجية، وكذلك

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أسعد الحكيم: مجلة المجمع العلمي العربي، ج٦، ص٥٠٣.

(٣) سبق أن بحثنا هذه النقطة وبيَّنا أن الصحيح أن العاشر هو ميلاد أبو القاسم.

(٤) أسعد الحكيم: المرجع السابق.

العمليات التي يجريها، وكان منزله مفتوحًا ليلَ نهار، يدخله الطلبة والأطباء والمرضى يرجون المشورة[1].

وقد انتشر في أوروبا انتشارًا هائلاً بصفة خاصة القسم الجراحي من التصريف بترجمة (جيراردي كريمونا) إلى اللاتينية، كما ترجم الكتاب كلُّه أكثرَ من مرة إلى أكثر من لغة: إلى العبرية، والبروفانسالية، وغيرهما. وكان يدرَّس في أول عهده في (سالرنا) وغيرها من مدن إيطالية، وحمله إلى فرنسا في القرن الثالث عشر فريق من الأطباء الذين التجأوا إليها لأحكام سياسية.

ومنهم (روجي دي بارمة) الذي نالت مؤلَّفاتُه في الجراحة شهرة عظيمة، وهي لم تكن في الحقيقة سوى انتحال أفكار أبي القاسم في الجراحة وأعماله فيها. ولا أرى أجلَّ برهان على ذلك من تصريح (ألفرد فرنكلين) في كتابه: (التنقيب عن أصول الجراحة ورقيها في فرنسا، ص٣٢)، ما تعريبه:

جدَّد أبو القاسم ذلك النابغة الرحب الجَسور فنَّ الجراحة عند العرب، فطار ذكره في الأقطار، ودخلت مؤلَّفاته إيطاليا، فكان فيها أبو القاسم دليلَ الجرَّاحين في أعمالهم وفي تصانيفهم. وما الجرَّاحون الذين نبغوا في إيطاليا بعد أبي القاسم إلا نقَلَةٌ ومقلِّدون لهذا الرجل العظيم.

وقد نُظر لهؤلاء الجرّاحين بعين الإعجاب، وعُدُّوا مجدِّدين للجراحة، على أنهم في الحقيقة لم يزيدوا على الجراحة أقلَّ شيء جديد.

إلى أن قال: وقد أخذ من كتاب أبي القاسم (روجي دي بارمة) كل القواعد التي تتألَّف منها مصنَّفاتُه، ولم يذكر مأخذها، وانتحلها لنفسه، فنال بذلك تلك الشهرة والمكانة العظيمة[2]. ومع ذلك التقدير الذي ناله أبو القاسم

(١) الدكتور حسين الهراوي: فضل العرب على الجراحة.

(٢) الدكتور أسعد الحكيم: مجلة المجمع العلمي العربي.

من روَّاد الطب وأساتذته، إلا أن التعصُّب يأبى إلا أن يُلقي ظلاله على لسان بعضهم.

يقول (لكلارك): إن أساس جراحة أبي القاسم هو الجزء السادس من كتاب (بول دوجين). ويأخذك العجب من أن هذا الاسم لم يكن مذكورًا في الزهراوية، ولا هذا الأصل معينًا فيه، ولكن يبطل عجبك إذا علمت أن تلك كانت عادة العرب في طريقة تأليفهم، فإنهم كانوا يدمجون ما يأخذونه عن الغير من دون تعيين في عملهم الخاص، إلا إذا كان المأخوذ عنه رجلاً ذا شهرة عظيمة مثل (أبقراط أو جالينوس)، وهم في عملهم الأدبي مثلهم في العلم. ولقد جرى على هذه الطريقة كل من (روجرده برم) و(جليوم ده ساليست) عندما أخذوا عن أبي القاسم الزهراوي[1].

فهذا اتهام للزهراوي بالنقل وبانتحال آراء غيره، ولكن من يقابل بين المؤلِّفين يجد أنه بينما اكتفى (بول) بالنقل عن سابقيه، فإن أبا القاسم أضاف إلى ما نقله معلومات صافية من اختباراته ومعارفه الخاصة وتعليقاته، وتداوين مشاهداته تدلُّ على أنه لم يكن ناقلاً فقط، بل كان جرّاحًا حاذقًا، وأنَّ وصفه للأعراض ولمختلف العمليات يُثبِت أنه قام بهذه العمليات مرارًا بنجاح[2].

هذا هو أبو القاسم، وتلك شهادة أعاظم أساتذة الطب الحديث في أوروبا بفضله وعلوِّ مكانته، ولا أرى أن أزيد عليها إلا ما قاله الأستاذ (فرند) الإنجليزي: أبو القاسم محيي الجراحة ومجدِّدُها.

---

(١) الهراوي: فضل العرب على الجراحة.

(٢) خير الله: الطب العربي، ص١٧٣.

تســاؤل

ومن حقنا أن نتساءل: إذا كان أبو القاسم الزهراوي بلغ هذه المنزلة، فلماذا لم يَشِعْ ذكره، ويَذِعْ صيته، ويرتفع شأنه؟ لمَ ظلَّ مغمورًا؟؟

سمعنا عن ابن سينا، والرازي، وابن النفيس، وابن زهر، وغيرهم، عرفنا قدرهم، وتغنَّينا بذكرهم، فما بال الزهراوي لم نسمع به، ولم نعرف عنه؟ وهذا سؤال حق؟ فلم يأخذ الزهراوي مكانه، ولم ينلْ حظه للآن من الدراسة والتقدير.. فلماذا؟؟

وإذا كان عدم تقدير الزهراوي (الآن) غريبًا مثيرًا للتساؤل، فالأكثر غرابة أن يكون هذا حاله (قديمًا) بين معاصريه، وأن هذا شأنه عند مؤرِّخي الطب والحكمة الماضين، وعند أصحاب كتب التراجم والطبقات والأعلام!! فلماذا أجمع هؤلاء على إهمال شأن الرجل؟ وغمطه حقَّه؟ لماذا لم نرَ في كتب معاصريه ومَن بعدهم حديثًا عنه وذكرًا له، وتقديرًا لجهده وعمله؟ اللهم إلا نتفًا لا تشفي ولا تكفي من مثل قولهم: "أبو القاسم الزهراوي خلف بن عباس، طبيب من العلماء" أو: "علمه الذي نبغ فيه علم الطب"... هكذا ولا يزيدون!

إن الأمر فعلاً في حاجة إلى تفسير. وفيما يلحُّ علينا هذا السؤال ويأخذنا من كل جانب، لنبحث عن سر إهمال شأن الرجل وعدم التنويه بهذا المجد الباذخ، فيما نحن نعيش مع الزهراوي في ظل هذا السؤال بدا لنا رأيٌ:

فالذي نراه أن مجد الزهراوي أو سرَّ مجد الزهراوي في نفس الوقت سرُّ إهماله، وتهوين شأنه! ذلك أن عظَمَة الزهراوي تكمن حقًا في أنه أول من عُني بالجراحة، وجعلها فرعًا مستقلاً، ثم أول مَن زاول الجراحة بنفسه، أي أجرى العمليات الجراحية بيده هو!! لا تعجب، فقد كان الأطباء قبله يشيرون لرئيس الممرِّضين، فيقطع لهم حيث يشيرون، ويشقُّ لهم حيث يريدون، ويعمل لهم ما يشاءون، ولا يمارس الطبيبُ الجراحةَ بنفسه!! فلمّا جاء الزهراوي وأجرى الجراحة بنفسه، وغمس يده في الدم والقيح والصديد، أنف منه الأطباء، بل وغير الأطباء، واستنكروا هذا العمل الذي كانوا يرونه مقزِّزًا محتقَرًا، لا يقوم به إلا الحجّامون (الحلاقون)، ثم كان قيامُه بالتشريح ودعوتُه إليه سببًا آخر.

ومن هنا وضعوا الرَّجُل من حيث كان يجب أن يرفعوه، وتحاشَوا ذكره، وتجنَّبوا خطته، وكان الأولى أن يتَّخذوه لهم قدوة ونبراسًا، ولكن هكذا دائمًا الرواد والقادة يدفعون ثمن ارتياد الطريق، واقتحام الحواجز، وتغيير المألوف.

لقد قلنا ذلك **استنتاجًا**، ساعدنا عليه ما نعرف من أن العرب كانوا يحتقرون كل صنعة يدوية بصفة عامة، وما جاء في كتاب الزهراوي نفسه من قوله: "إن السبب الذي لا يوجد من أجله صانع ماهر في العمل اليدوي أنه ينبغي لصاحبه أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح".

وبعد أن قلنا ذلك **استنتاجًا**، وقع لنا ما يجعلنا نقوله تحقيقًا، فقد وجدنا في حجَّة وقف السلطان حسن -صاحب المسجد والمدرسة المعروفَين بالقاهرة-

ما يلي: "يُصرف ١٢٠ درهمًا شهريًا لطبيبين مسلمين يحضران يوميًا لعلاج أرباب الوظائف في المدرسة والمسجد والطلبة، أحدهما طبيب أبدان، والآخر طبيب عيون، ويُصرف ٤٠ أربعون درهمًا شهريًا لجرَّاح يحضر معهما".

فها قد رأيت!! **يُجعل الجرّاحُ ثلث طبيب**، هذا مع أن السلطان حسن قُتِل سنة ٧٦٢هـ، أي متأخِّرًا عن الزهراوي بنحو أربعة قرون، وكانت الأحوال تتطوَّر نحو الاعتراف بشأن الجراحة.

ومن العجيب أن تتبدَّل الأحوال والأعراف، وتصبح الجراحة الآن أعلى فروع الطب شأنًا، وهي التي أُهمل بسببها شأن الزهراوي.

الزهراوي في الطب اليوم

إذا كان الزهراوي قد ملأ سمع الطب وبصره هذه الأزمان الطويلة، فمما يزيد من قدره، ويرفع من مجده أن منزلته ليست تاريخية فحسب، فلم يتنحَّ أبو القاسم عن المعمل وحجرة العمليات، بل ما زالت للآن كثير من أفكاره واكتشافاته ترفع رأسها في كل معهد طبي.

فهو الذي أشار في عمليات البتر بالقطع في الأنسجة السالمة عن بُعد من الأنسجة المريضة، وهذه بعينها الطريقة المتبعة اليوم[١].

وفي الالتهابات المتقيِّحة أوصى بخزع الخُراجات القريبة من المفاصل في بادئ ظهورها، وباستئصال جميع الأقسام المريضة في الالتهابات العظمية. وذلك خير ما توصي به الجراحة الحديثة[٢].

وقد توسَّع الزهراوي في استعمال الكيّ في فتح الخراجات واستئصال السرطان، وفضَّلَه على استعمال المشرط مخالفًا بذلك تعاليم اليونان. ونحن

---

(١) أسعد الحكيم: مجلة المجمع العربي.

(٢) نفس المصدر السابق.

اليوم نعتقد بأن استعمال الكيّ خيرُ الوسائل الجراحية لفتح الخراجات.

ومـا زالت طريقتـه في ربط الشريـان ووقف النزيـف مُعترَفًا بهـا للآن[1]. ونظريتـه في الاستعـداد الخاص في بعض الأجسام للنزيـف "هيموفيليا" ما زالت قائمـة. وكذلك وضع (والشر) في الولادة، وعملية تفتيت الحصاة داخل المثانة، وفتح القصبة الهوائية، وتحويل مجرى البول، ما زالت هذه الابتكارات التي ابتكرها أبو القاسم تُجرى في المستشفيات والمعاهد الطبية[2].

قال (روز) و(كارلس) في كتابهما بعد وصف مطوَّل في كيفية تنظيف الشريان:

ضع إبرة Anevrism أنيورزم -أي صنارة ذات طرف مثقوب- وحرِّكها إلى أعلى وأسفل حتى تخلِّص الشريان مما حوله، وبعد إنقاذ الخيط فيها، انزعها من مكانها، واربط الشريان.

والقسم الآخر من كلام أبي القاسم -عن جراحة الشريان- ينطبق على مبادئ عملية عصرية، فهو يوافق ما في الكتب الحديثة من أن مضاعفات ربط الشريان هي إسراع التعفُّن، وحدوث النزف بعده، وهو المعروف بالنزيف الثانئي.

ويُعدُّ من مبتكرات أبي القاسم -كما أشرنا- أنه أول مَن أدخل الأبريسم أو الحرير في ربط الشريان، وأول مَن أدخل أوتار العُود فيها أيضًا، وهي مصنوعة من جدار أمعاء الغنم، وهو ما يُتَّخذ منه الخيوط الجراحية في الوقت الحاضر، وكلا هذين من الخيوط يُستعمل إلى الآن، وفوائدها ليس هنا موضع شرحها، ولكن أبا القاسم يُلمح إليها قائلاً: "إنها مما لا يسرع إليه العفن".

---

(١) خير الله: الطب العربي، ص١٧٢، ١٧٣.

(٢) خير الله، المرجع السابق.

وعملية الجرَّاح العربي في الحصوة ما زالت تعمل إلى اليوم بقليل من التصرف، كأن يكون الشقُّ على مجس يوضع في المثانة، سواء كان الشقُّ في الوسط، أو كان إلى أحد الجانبين.

وقد زاحمت هذه عملية أخرى في إخراج الحصوة من جهة البطن في النصف الأخير من القرن الماضي، ولكن عملية أبي القاسم ما زالت حافظة لكيانها، وله فخر ابتداعها خصوصًا في تفتيت الحصوة قبل إخراجها. وكذلك عملية الشق في إخراج ما يسقط في الأذن مما لا يزال استعماله إلى اليوم، وبالمثل طريق غسيل الأذن بالحقن.

كذلك استعمال الماء المالح في غسيل الجروح التي يُخشى تقيُّحها، وهو ما يفضَّل استعماله إلى اليوم؛ لأنه يدرُّ فيضان المصل في الجرح، فيغسله ويمنع تعفُّنه.

وكذلك علاج الشعرة في العين بالقطع والخياطة التي ما زالت تُعمل للآن مع تعديل بسيط.

علاج الظفرة: شرح أبو القاسم طريقة علاجها على النحو الذي ذكرناه في موضوع سابق، وما زالت طريقته مستعملة إلى اليوم.

علاج السيل في العين: تلقط بالصنارة، ثم تقطع كل واحد بالمقصِّ، وتعمل هذه العملية للآن.

الجرد: طريقته واستعماله وآلته كالحديث تمامًا.

الكمية: (المِدَّة الموجودة خلف القرنية): تشقُّ القرنية بمبضع رقيق في الإكليل، وهذه العملية بنصِّها وفصِّها في الكتب الحديثة.

في قطع اللوزتين: وهي عملية حديثة أيضًا، إلا أنه جرى كثير من التعديل في شكل الآلات.

أورام اللهاة: ما زالت على الطريقة عينها.

طريقة البذل في الاستسقاء: بإدخال أنبوبة طرفها مَبريٌّ كبرية القلم بعد شقٍّ جدار البطن، وهذه لا تزال مستعملة إلى الآن.

كيفية شقّ الأدرة المائية أو القيلة: طريقة الشقّ وإخراج الخصية كأحسن الطرق المعروفة الآن، وإنما كان أبو القاسم يفضِّل قطع الصفاق بأكمله، وهذا لكي لا يعود الماء، وذلك ما يوصي به أكثر الجرَّاحين.

علاج الناسور الذي في مآقي العين: بالكيِّ، وهي طريقة حديثة أيضًا[1].

(١) حسين الهراوي، وقد يكون جرى شيء من التعديل أو التحسين في هذه المبتكرات التي ذكرنا أنها ما زالت تعمل للآن، فإن كلام الدكتور الهراوي هذا كان في سنة ١٩١٧م.

خاتمــة ونتائــج

ويمكننا الآن أن نقول إننا وصلنا إلى النتائج الآتية:

١- إن أبا القاسم الزهراوي كان جرَّاحًا عظيمًا، أو هو الجرَّاح الأول، كما كان طبيبًا عالمًا، وكيمائيًا ماهرًا.

٢- إنه كان أستاذًا ومرجعًا للطب قرونًا عدة من الحادي عشر إلى السابع عشر.

٣- إن كتابه كان أستاذ أوروبا وجامعاتها في عصر النهضة.

٤- إن كثيرًا من مبتكراته في الطب والجراحة ما زالت تُجرى للآن بنفس أسلوبه.

٥- إن المسلمين قادوا الإنسانية وأخرجوها من جاهليتها، وحفظوا تراثها.

٦- إن العرب لم يعرفوا التعصُّب لدين أو لجنس.

٧- إن خرافة العقلية الآرية التي يروِّجها المستشرقون ليست إلا حلقة من حلقات السلسلة التي حاول الغرب أن يخنقنا بها.

وليس بعسير على من كان هذا شأنه أن يعود إليه مجده إذا عرف الطريق، وها قد وضعنا أقدامنا عليه، وإنا إلى المجد سائرون.

ومن المناسب أن أختم هذه الصفحات بتلك الفقرة من كتاب (حمراء غرناطة) لمؤلفه (ألبر شامدور) قال:

«عاش العربي في فجر التاريخ، في تلك الأرض القاحلة، تلهب الشمس ذرات رمالها، عاش في تلك الصحراء يحتمل التعب والجوع، والعطش والعزلة، فاتخذ النجوم له دليلاً، والعلم مرشدًا وسبيلاً.. إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع علم العالم في مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضًا في مائة عام، قد ترك لنا في «حمراء غرناطة» آثار علمه وفنه.

إن هذا العربي الذي نام نومًا عميقًا مئات السنين، وقد استيقظ وأخذ ينادي العالم: هأنذا أعود إلى الحياة لا لأكون آلة طيّعة تسيِّرها العواصم الكبرى ووسائلها الجهنمية، بل لأحيا حياة مستقلة مناضلة.

ثم يقول: من يدري، قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب، فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية.

ثم يقول: لست أدَّعي النبوة، لكن الأمارات الدالَّة على هذه الاحتمالات كثيرة، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها».

ثم تسيطر عليه روح التعصب فينادي قومه قائلاً: «أبيدوا أشباح العرب في الحمراء.. أبيدوها قبل أن تُبعث، ولكن هيهات أن نستطيع إلى ذلك سبيلاً»اهـ.

ونقول له: هيهات، فقد استيقظ العملاق.

وقد أجمع أعلام السياسة والتاريخ والاستشراق من طراز جوستاف لوبون، وولز، وترند، وستانلي لين بول، وغيرهم، على أن العرب (المسلمين) لو وجدوا الأسلوب الصالح الموحِّد لكيانهم لكان العالم كله في خدمتهم. وها قد وضح الطريق، ونحن عليه صاعدون بإذن الله.

مصادر البحث

١- أحمد عيسى بك: آلات الطب والجراحة عند العرب، القاهرة، سنة ١٩٢٥م.

٢- ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

٣- إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين – جزءان – استامبول، سنة ١٩٥٥م.

٤- أمين أسعد خير الله: الطب العربي، بيروت، سنة ١٩٤٦م.

٥- ابن بشكوال: الصلة – جزءان – مجريط، سنة ١٨٨٣م.

٦- إلياس سركيس: معجم المطبوعات – ١١ جزءًا – القاهرة، سنة ١٩١٩م.

٧- حسين الهراوي: فضل العرب على الجراحة، القاهرة، سنة ١٩١٧م.

٨- الحُميدي: جذوة المقتبس، مصر، سنة ١٩٥٣م.

٩- حاجي خليفة: كشف الظنون – استامبول، سنة ١٩٤١م.

١٠- خير الدين الزركلي: الأعلام – ١٠ أجزاء – القاهرة، سنة ١٩٥٤م.

١١- زكي علي: رسالة الطب العربي وتأثيره في مدينة أوربة، القاهرة، سنة ١٩٣١م.

١٢- عمر رضا كحالة: معجم المؤلِّفين.

١٣- جوستاف لوبون: حضارة العرب، القاهرة سنة ١٩٤٥م.
١٤- محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية – جزءان – القاهرة، سنة ١٩٣٦م.
١٥- مجلة المجمع العلمي العربي: تاريخ الطب عند العرب، أسعد الحكيم، ج٦.
١٦- المقري: نفح الطيب – ١٠ أجزاء – القاهرة، سنة ١٩٤٩م.
١٧- البستاني: دائرة المعارف.
١٨- صناجة الطرب في أخبار العرب (أصول المعارف).
١٩- تاريخ الأندلس السياسي والعمراني.
٢٠- الدكتور النجاتي الماحي، عضو مجلس السيادة السوداني، مقدمة في تاريخ الطب العربي.
٢١- الدكتور شوكت الشطي: الطب عند العرب.

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون أنها سترضيك.. دعنا نتفق أن القراءة درة أنعم الله بها علينا ووهبنا اياها، تلك اللذة المميزة – والتي لم يمنحها للبعض – وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم فى بضعة صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ...

لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع..

لذلك،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقف بين يديك – بعد الانتهاء منه – فهناك الكثيرين ممن لا يقرأون، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خِّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك فى العمل، أو حتى شخص ما فى المواصلات العامه لم تره من قبل!

كن سبيلا فى إسعاد الآخرين بهذا الكتاب ولا تتعجب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل، يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دار دوِّن